الفصل الثانى

القصص الاجتماعية

١- دَيْنٌ قديمٌ

بلغنى أنّه كـان بالكوفة رجلٌ من أهل الأدب والظُّرف، يعـاشر النّاس، وتـأتيه ألطافهم[١]، فيعيشُ بها.

ثمّ انقلب الدّهر عليه، فأمـسك النّاس عنه، وجَفَوْهُ حتّى قعد فى بيـته، والتجأ إلى عياله، فشـاركهنّ فى فضل مغازلهنّ، واستمرّ ذلك عليـه، حتّى نسيَهُ النّاس، ولَزِمَهُ الفقر.

قال الرجل: فـبينما أنا ذاتَ ليلـة فى منزلى، على أسْوَإِ حالٍ، إذا وَقْعُ حـافر دابّة، ورجل يدقّ بابى، فكلّمته من وراء الباب.

فقلت: ما حاجتُك؟

فقال: إنّ أخًا لك لا أسمّيه، يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إنّى رجل مُستتر، ولستُ آنسُ بكل أحد، فإن رأيتَ أن تصيرَ إلىّ، لنتـحدّثَ ليلتنا. فقلتُ فى نفسى: لعلّ جَدّى[٢] أن يكون قـد تحـرّك؟ ثمّ لم أجد لى مـا ألبسـه، فاشـتـملْتُ بإزار امرأتى[٣]، وخرجتُ فقدّم إلىّ فرسًا مجنوبًا كـان معه، فركبته. إلى أن أدخلنى إلى فتًى من أجلّ النّـاس وأجملهم وجهًـا، فقام إلىّ، وعـانقنى، ودعا بطعـام فأكلنا، وبشراب فشربْنا، وأخذنا فى الحديث، فما خُضْتُ فى شىء إلاّ سبقنى إليه.

حتّـى إذا صار وقت السَّـحَر، قـال: إن رأيتَ أن لا تسألنى عن شىء من أمـرى، وتجعلَ هذه الزيارة بيـنى وبينك، إذا أرسلتُ إليك فعلتَ، وههنا دراهم تقـبلُها، ولا تردّها، ولا يضيقُ بعدَها عنك شىء، فنهضْتُ، فأخرج إلىَّ جِرابًا مملوءًا دراهم.

---

(١) الألطاف: الهدايا.

(٢) جدّى: حظى.

(٣) اشتمل: تلفّع.

فداخلَتْنى أريَحيَّةُ الشراب، فقلت: اخترتنى على النّاس للمُنادمة، ولِسِرِّك، وآخذُ على ذلك أجرًا؟ لا حاجةَ لى فى المال.

فجهَدَ بى، فلم آخذْه، وقدّمَ إلىّ الفَرَس، فركبتُه، وعدتُ إلى منزلى، وعيالى متطلّعون لما أجيء به، فأخبرتهم بخبرى.

وأصبحتُ نادمًا على فِعلى، وقد ورد علىّ وعلى عيالى، ما لم يكن فى حسابنا.

فمكثتُ حينًا، لا يأتى إلىّ رسول الرّجل، إلى أن جاءنى بعد مدّة، فصرتُ إليه، فَعَاوَدَنِى بمثل ذلك الفعل، فعادوته بالامتناع، وانصرفتُ مخفقًا، فأقبلَتْ امرأتى علىّ باللوم والتوبيخ.

فقلت لها: أنتِ طالقٌ ثلاثًا إن عاوَدَنى ولم آخذْ ما يعطينى.

فمكثتُ مدّة أطول من الأولة[1]، ثمّ جاءنى رسوله، فلمّا أردتُ الركوب، قالت لى امرأتى: يا مَيْشوم اذكرْ يمينَك، وبكاءَ بناتك، وسوءَ حالك.

فصرتُ إلى الرّجل، فلمّا أفضينا إلى الشُّرْب، قلتُ له: إنّى أجد علّة تمنعنى منه، وإنّما أردتُ أن يكون رأيى معى.

فأقبل الرّجل يشرب وأنا أحادثه، إلى أن انْبَلَجَ الفجر، فأخرَج الجراب وعاودنى، فأخذتُه، فقبّل رأسى، وشكرنى على قَبولِ بِرِّه، وقدّم إلىّ الفرسَ، فانصرفتُ عليه، حتّى انتيهتُ إلى منزلى، فألقيتُ الجراب.

فلمّا رآه عيالى، سَجَدْنَ للّهِ شكرًا، وفتحناه، فإذا هو مملوءٌ دنانيرَ.

فأصلحتُ منه حالى، واشتريتُ مركوبًا[2]، وثيابًا حسنة، وأثاثًا، وضيْعةً قدّرت أنّ غلّتها تفِى بى، وبعيالى بعدى، واستَظْهَرتُ على زمانى ببقية الدنانير.

---

(١) الأولة: الأولى -بلهجة العراق والخليج، وفى مصر: الأولانية.

(٢) المركوب هنا: ما يركب من الدواب.

وانثال النّاسُ عليّ، يُظهرون السرور بما تجدّد لى، وظنُّوا أنّى كنتُ غائبًا فى انتجاع مَلِك[1]، فقدِمتُ مُثْرِيًا، وانقطع رُسُلُ الرّجل عنّى.

فبينما أنا أسيرُ يومًا بالقرب من منزلى، فإذا ضوضاءُ عظيمة وجماعة مجتمعة.

فقلت: ما هذا؟

قالوا: رجلٌ من بنى فلان، كان يقطع الطريقَ، فَطَلَبَهُ السلطان، إلى أن عُرِفَ خبرُه ههنا، فهُجِمَ عليه، وقد خرج على النّاس بالسّيف، يمنع[2] نفسه.

فَقَرُبْتُ من الجمع، وتأمّلتُ الرّجلَ، فإذا هو صاحبى بعينه، وهو يقاتل العامة، والشُّرَط، ويكشِفُ النّاس، فيبعُدون عنه، ثمّ يتكاثرون عليه ويضايقونه.

فنزلتُ عن فرسى، وأقبلتُ أقودُه، حتّى دَنَوْتُ منه، وقد انكشف الناسُ عنه.

فقلت: بأبى أنتَ وأمّى، شأنَك والفرسَ، والنجاةَ، فاستوى على ظهره، فلم يُلْحَق.

فقبض علىّ الشُّرَط، وأقبلوا علىّ، يلهزونى[3]، ويشتمونى، حتّى جاءوا بى إلى عيسى بن موسى، وهو والى الكوفة، وكان بى عارفًا.

فقالوا: أيّها الأمير، كدنا أن نأخذَ الرّجل، فجاء هذا، فأعطاه فرسًا نجا عليه.

فاشتدّ غضب عيسى بن موسى، وكاد أن يُوقِعَ بى، وأنا مُنْكِرٌ لذلك.

فلمّا رأيتُ المَصْدُوقة[4]، قلت: أيّها الأمير، أدننى إليك، أصدُقْكَ.

فاستدنانى، فشرحتُ له ما كان أفضَتْ بى الحال إليه، وما عاملنى به الرّجل، وأنّى كافأته بجميلِ فعله.

فقال لى سرًّا: أحسنت، لا بأس عليك.

---

(١) الانتجاع: الرعى، والمعنى المقصود هنا: قصدت أميرًا فأعطانى.

(٢) يمنع نفسه: يدافع عن نفسه.

(٣) اللهز: الضرب بالكف على الرقبة.

(٤) المصدوقة: العصا التى يؤدَّب بها الأمير مَن يعاقبه، أطلق عليها هذا الاسم.

ثمّ التفت إلى النّاس فقال: يا حمقى، هذا يُتَّهم؟ إنّما لَفظَ حافرُ فرسه حصاة، فقاده ليريحَه، فغشيه رجل مستقتل، بسيفٍ ماض، قد نكَلتم[1] عنه. بأجمعكم، فكيف كان هو يدفعه عن فرسه؟ انصرفوا، ثمّ خلّى سبيلى.

فانصرفتُ إلى منزلى، وقد قضيْتُ ذمام الفتى، وحَصَلتْ النعمة بعد الشدّة، وأمِنْتُ عواقبَ الحال، وكان آخرَ عهدى به.

●●●

(١) نكَل: تراجع وامتنع.

٢- ضَياع!!

كان يصحُبنا على القرآن، رجلٌ مستور صالح، يُكْنَى أبا أحمد، وكان يكتب كتب العَطف[١] للناس، فحدّثنى يومًا قال:

بقيتُ يومًا بلا شىء، وأنا جالس فى دكّانى، وقد دعوتُ الله أن يسهّل قُوتِى، فما استتممت الدعاء، حتى فَتَحَ باب دكّانى غلامٌ أمرد، حسنُ الوجه جداً، فسلّم علىّ وجلس.

فقلتُ له: ما حاجتُك؟

فقال: أنا عبدٌ مملوك، وقد طردنى مولاى، وغَضِبَ علىّ، وقال: انصرف عنّى إلى حيثُ شئتَ، ومـا أعددتُ لنفسى مَن أطرحُها عـليه فى مثل هذل الوقت، ولا أعرفُ مَن أقصـده، وقد بقيتُ مُتـحيّرًا فى أمرى، وقـيل لى إنّك تكتب كتب العطف، فاكتب لى كتابًا.

فكتبت له الكتابَ الذى كنت أكتبه، وهو ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١، ٢]... إل آخر السـورة والمعوّذتين، وسورة الإخلاص، وآية الكرسى، و﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]... إلى آخر السـورة، وكتبتُ آيات العطف وهى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]... إلى آخر الآية.

وقلتُ له: خذ هذه الرُّقعة، فَشُدَّها على عَضُدِكَ الأيمن، ولا تُعلّقْها عليك إلا وأنت طاهر.

---

(١) كتب العطف: أحجبة لجلب المحبة أو استدامتها.

فأخـذها وقام وهو يبكى، وطرح بين يدىَّ ديناراً عَـيْنًا، فداخلتنى له رحـمةٌ، فصلّيْتُ ركعتين، ودعوْتُ له أن ينفعَه الله بالكتاب، ويردّ قلب مولاه، وجلست.

فما مَـضَتْ إلاّ ساعتان، وإذا بأبى الجُـود، (خليفة عجـيب)، غلام نَازُوك[1]، وكان خليفتَه على الشُّرطة، قد جاءنى، فقال لى: أجب الأمير نَازُوك، فَارتَعْتُ.

فقـال: لابأسَ عليك، وأركَـبَنى بغلاً، وجـاء بى إلى دار نَازُوك، فتـركنى فى الدهاليز ودخل.

فلم كان بعـد ساعة، أُدخِلْتُ، فإذا نازوك جـالسٌ فى دِسْتٍ عظيم، وبين يديه الغلمان قيامًا سِمَاطَيْن، نحو ثلثمائة غلام وأكثر، وكاتبه الحسين بين يديه، ورجل آخر لا أعرفه.

فارتَعْتُ، وأهْوَيْت لأقـبِّلَ الأرض، فقال: مَهْ، عافـاكَ الله، لا تفعل، هذا من سُنن الجبّارين، وما نريد نحن هذا، اجلس يا شيخ، ولا تَخَفْ، فجلست.

فقال لى: جاءك اليوم غلامٌ أمرْدُ، فكتبتَ له كتابًا للعطف؟

قلت: نعم.

قال: اصدُقْنِى عمّا جرى بينكما، حرفًا، حرفًا.

فأعدته عليه، حتّى لم أدَعْ كلمة، وتلوْتُ عليه الآياتِ الّتى كتبتها.

فلمّا بلغتُ إلى قول الغلام: أنا عبدٌ مملوك، وما أعددتُ لنفسى مَن أقصِدُه فى هذه الحال، ولا أعرفُ أحـدًا ألجأ إليه، وقد طردنى مولاى، بكيْتُ لمـا تداخلنى من رحمة له، وأرْيتُه الدينارَ الذى أعطانيه، فَدَمَعَتْ عينا نازوك وتجلَّد، واستَوْفى الحديث.

وقال: قُمْ يا شيخ، بارك اللـه عليك، ومهما عَرَضَتْ لك من حـاجة، أو لجارٍ لك، أو صديق، فسلْنا إيّاها، فـإنّا نقضيها، وأكـثر عندنا وانْبسِطْ فى هذه الدار، فإنّك غيرُ محجوب عنها، فدعوتُ له وخرجت.

---

(١) نازوك: قائد تركى وصاحب شُـرطة بغداد، وعجيب غلام نازوك، من أتباعـه، ويدير الشُّرطة نيابة عنه، أما أبو الجود (الثالث فى سلسلة قيادات الشرطة) فهو تابع لعجيب.

فلما صرت خارج باب المجلس، إذا بغلام قد أعطانى قرطاسا فيه ثلثمائة درهم، فأخذته وخرجت.

فلمّا صرتُ فى الدهليز، إذا بالفتى، فعدل بى إلى موضعٍ وأجلسنى.

فقلت: ما خَبرُك؟

فقال: أنا غلامُ الأمير، وكان قد طردنى، وغَضِبَ علىّ، فلمّا أن جِئتُك، واحتُبِسْتُ عندَك، طلبنى، فرجعتُ مع رُسُلِه.

فقال لى: أين كنتَ؟

فصَدَقْتُه الحديث، فلم يُصَدِّقْنى، وأمر بإحضارك، فلمّا اتّفقنا فى الحديث. وخرجتَ الساعة، أحضرنى، وقال: يا بنىّ أنت الساعة من أجلِّ غِلمانى عندى، وأمكَنِهم من قلبى، وأخصِّهم بى، إذ كنتَ لمّا غضبتُ عليك ما غيّرك ذلك عن محبّتى، والرغبة فى خدمتى، وطلبِ الحِيَلِ فى الرجوع إلىَّ، وانكشف لى أنّك ما أعددتَ لنفسك - بعد الله - سِوَاىَ، وَلا عرفَتَ وجهًا تلجأ إليه فى الدّنيا غيرى، فما ترى بعد هذا إلاّ كل ما تحبّ، وسأعْلِى منزلتَك، وأبلغُ بك أعلى مراتب نُظَرائك، ولعلّ الله سبحانه استجابَ فيك دعاء هذا الرجل الصالح، ونفعك بالآيات، فبأىّ شىء كافأتَ الرجل؟

فقلت: ما أعطيته غيرَ ذلك الدينار.

فقال: سبحان الله، قم إلى الخزانة، فخذ منها ما تريد، وأعْطِه.

فأخذتُ منها هذا القرطاس، وجئتُكَ به، فخذه، وأعطانى أيضًا خمسمائة درهم، وقال لى: الزَمْنى، فإنّى أحسِنُ إليك.

فجئته بعدَ مُدَيْدَة، فإذا هو قائدٌ جليل، وقد بلغ به نَازُرُكَ تلك المنزلة، فوصلنى بِصِلَةٍ جليلة، وصار لى عُدّةً على الدهر وذخيرة.

●●●

٣- ظَالِمٌ قَصَمَهُ الله

حدّثنى محمّـد بن محمّد الـمُهندس، قال: حدّثنى أبو مَـرْوانَ الجامدى، قال: ظلمنى أحمدُ بن على بن سعيد الكوفى، وهو يتقلّد وَاسِطَ لناصرِ الدولة[1]، وقد تقلّد إمْـرَةَ الأمراء ببـغداد، وكنتُ أحـدَ من ظَلَم، فظلمنى، وأخذَ مـن ضيعـتى بالجامِدة نيّفًـا وأربعين كُرّاً أرزا، بالنصف من حقّ الرَّقَبة، بغيـر تأويل ولا شُبهة، سوى مـا أخذه بحقّ بيت المال، وظَـلَم فيه أيضًـا، فتظلّمـتُ إليه، وكلّمتُـه فلم ينفعْنى معه شىء، وكان الكُرّ الأرزُ بالنصف -إذ ذاك- بثلاثين دينارًا.

فقلت له: قد أخَذَ منى سيّدى مـا أخذ، والله، ما أهتدى أنا وعيالى، إلى ما سوى ذلك، ومـا لى ما أقوتُهُم به باقى سنتى، ولا مـا أعَمِّرُ به ضيْـعَتى، وقد طابت نفسى أن تُطلِقَ لى من جملته عشرة أكرار، وجعلتُك من الباقى فى حِلّ.

فقال: ما إلى هذا سبيل.

فقلت: فخمسة أكْرار.

فقال: لا أفعل.

فبكيْتُ، وقبّلتُ يدَه، ورقّقتُه، وقلت: هَبْ لى ثلاثة أكرار، وتصدّقْ علىَّ بها، وأنت من الجميع فى حِلٍّ.

فقال: لا والله، ولا أرزة واحدة.

فتحيّرت، وقلت: فإنى أتظلم منك إلى الله تعالى.

فقال لى: كُنْ على الظلامة، (يكررها دفعات، ويكسر الميم، بلسان أهل الكوفة).

فانصرفت منكسرَ القلب، مُنقطع الرجاء. فجمعتُ عيالى، وما زلنا ندعو عليه ليالى كثيرة، فهرب من واسط فى الليلة الحادية عشرة من أخذه الأرز، فجئتُ إلى البَيْدر، والأرز مطروح، فأخذتهُ، وحملتُه إلى منزلى، وما عاد الكوفى بعدها إلى واسط، ولا أفلح.

---

(١) ناصر الدولة البُويهى، سيطر على منطقة واسط العراقية، وهى فوق البصرة فى الاتجاه شمالاً نحو بغداد.

٤- قاطعُ طريقٍ مُثَقَّف

وحدّثنى عبـدُ الله بن عمر بن الحارث الواسطى السَّرَّاج، المعـروف بأبى أحمد الحارثىّ، قال:

كنتُ مسافـرًا فى بعض الجبال، فخرج علينا ابنُ سَـباب الكُردىّ، فقطع علينا، وكان بِزِىِّ الأمراء، لا بِزِىّ القُطّاع.

فقرُبْتُ منه لأنظرَ إليـه وأسمعَ كلامَه، فوجدته يدلُّ على فـهْمٍ وأدب، فداخَلْتهُ فإذا برجلٍ فاضل، يروى الشِـعر، ويفهم النحو، فطمِعْتُ فيـه، وعمِلْتُ فى الحال أبياتًا مدحتُه بها.

فقال لى: لستُ أعلم إن كان هذا من شعـرك، ولكن اعمل لى على قافية هذا البيت ووزنه شِعرًا الساعة، لأعلم أنّك قلتَه، وأنْشَدَنى بيتًا.

قال: فعمِلتُ فى الحال إجازة له ثلاثة أبيات.

فقال لى: أىُّ شىء أُخِذَ منك؟ لأردَّ إليك.

قال: فذكرتُ له ما أُخِذَ منّى، وأضفتُ إليه قماشَ رفيقين كانا لى

فردّ جميع ذلك، ثم أخذ من أكياس التجّار الـتى نهبها، كيسًا فيه ألفُ درهم، فوهبه لى.

قال: فَجَزَيْتُهُ خيرًا، ورددتُه عليه.

فقال لى: لِمَ لا تأخذه؟ فَوَرَّيْت[1] عن ذلك:

فقال: أحبّ أن تَصْدُقَنى.

فقلت: وأنا آمن؟

فقال: أنت آمن.

---

(١) التورية: الإشارة إلى المقصود بطريق غير مباشر.

فـقلت: لأنّك لا تملكُه، وهو من أمـوال الناس الذين أخـذتَها مـنهم الساعـة ظُلمًا، فكيف يحلّ لى أن آخذَه؟

فقال لى: أما قرأتَ ما ذكره الجـاحظُ فى كتاب اللصوص، عن بعضهم، قال: إنّ هؤلاء التـجّار خـانوا أمانتـهم، ومنعوا زكـاةَ أموالهم، فـصارت أمـوالُهم مُستهلكةً[1] بها، واللصوص فقراءٌ إليها، فإذا أخذوا أموالهم - وإن كرهوا أخذها - كان ذلك مبـاحًا لهم، لأنّ عَيْش المال مستـهلكةٌ بالزكاة، وهؤلاء يستحـقون أخذ الزكاة، بالفقر، شاءَ أربابُ الأموال أم كَرِهُوا.

قلت: بلى، قد ذكر الجاحظ هذا، ولكن من أين يعلم أنّ هؤلاء ممن استَهْلَكَتْ أموالهُم الزكاة؟

فقال: لا عليك، أنا أحضر هؤلاء التجّـار الساعة، وأرِيكَ بالدليل الصحيح أنّ أموالَهم لنا حلالٌ[2].

ثم قال لأصحابه: هاتوا التجّار، فجاءوا.

فقال لأحدهم: منذ كم أنت تتّاجر فى هذا المال الذى قَطَعْنا عليه؟

قال: منذ كذا وكذا سنة.

قال: فكيف كـنتَ تُخرج زكاتَه؟ فَـتَلَجْلجَ، وتكلّم بكلام مَنْ لا يَعـرف الزكاة على حقيقتها فضلاً عن أن يُخْرِجَها.

ثم دعا آخرَ، فـقال له: إذا كان معك ثلثـمائةُ درهم، وعشرةُ دنانـير، وحَالَتْ عليك السنة، فكم تُخرِج منها للزكاة؟ فما أَحسنَ أن يُجيب.

ثم قال لآخر: إذا كان معك متاعٌ للتجارة، ولك دَيْنٌ على نفسيْن، أحدهما مَلِيءٌ، والآخر مُعْسِر، ومعك دراهم، وقد حال الحَوْل على الجميع، كيف تُخرِج زكاة ذلك؟

---

(١) هذا الرأى يقوم على أساس أن الزكاة مستحقة فى المال الذى يبلغ النصاب على راس كل سنة. فإذا أهمل المالك إخراج زكاة ماله عددًا من السنين، أدى هذا - على الرأى السابق - إلى اعتبار المال كله مستحقًا للزكاة.

(٢) هنا مغالطة واضحة، وحتى لو كان المال الذى لم تُخرج زكاته يُقاس إلى المال المسروق، فإن سرقة المسروق ليست مباحة

قال: فما فَهِمَ السؤال، فضلاً عن أن يتعاطى الجواب.

فَصَرَفَهُم، ثم قال لى: بَانَ لك صِدْقُ حكاية أبى عثمان الجاحظ؟ وأنّ هؤلاء التجار ما زكّوا قَط؟ خذ الآن الكيس.

قال: فأخذتُه، وساق القافلةَ لينصرفَ بها.

فقلت: إن رأيتَ أيها الأمير أن تُنفِذَ معنا من يُبلغُنا المأمن، كان لك الفضلُ.

ففعل ذلك.

***

٥- نِقابَةُ اللّصوص

غلام لى قال:

كنتُ ناقدًا بالأُبُلّة[١]، لرجل تاجر، فاقتَضَيْتُ له فى البصرة نحو خمسمائة دينار عَيْنًا وَوَرِقًا[٢]، ولففتها فى فُوطَةٍ، وأشفيتُ على المصير إلى الأُبُلّة.

فما زالتُ أطلب ملاحًا، حتى رأيتُ ملاحًا مجتازًا فى خَيْطَيّة[٣] خفيفة فارغة، فسألتُه أن يحملنى، فسهَّل علىَّ الأجرة، وقال: أنا راجع إلى منزلى بالأبلّة، فانزل معى، فنزلتُ، وجعلتُ الفوطةَ بين يدىَّ.

وسرنا إلى أن تجاوزنا مِسماران[٤]، فإذا رجلٌ ضريرٌ على الشطِّ، يقرأ أحسنَ قراءةٍ تكون.

فلمّا رآه الملاح كبَّر، فصاح هو بالملاّح: احمِلْنى، فقد جنَّنِى الليلُ، وأخاف على نفسى، فشتمه الملاّح.

فقلت له: احمِلْه، فدخل إلى الشطِّ فحمله، فلمّا حَصَلَ معنا رجع إلى قراءته، فخَلَبَ عقلى بِطِيبها.

فلما قرُبنا من الأبلّة، قطع القراءة، وقام ليخرجَ فى بعض المشَارع فى الأُبُلّة، فلم أرَ الفوطة، فقمتُ واقفًا، واضطربْتُ، وصِحْتُ.

فاستغاث الملاح، وقال: الساعةَ تَقْلِبُ الخَيْطِيّة، وخاطبنى خطابَ مَنْ لا يعلم حالى.

فقلتُ له: يا هذا، كانت بين يدىَّ فوطةٌ فيها خَمسمائة دينار

---

(١) الأبلّة: بلد قرب البصرة على شاطئ دجلة، والناقد هو الجابى أو محصِّل الأموال.

(٢) العَيْن: الذهب، والوَرِق (بكسر الراء): الفضة.. ويعنى الدنانير والدراهم.

(٣) الخيطية: نوع من الزوارق الخفيفة.

(٤) اسم ضاحية قريبة من البصرة.

فلمـا سمع الملاّح ذلك، بكى، ولطم، وتعـرَّى من ثيابه، وقـال: أدْخُلُ الشطَّ ففتّش، ولا لى موضعٌ أخبِّئ فيه شيئًا فتتّهمنى بسرقته، ولى أطفال، وأنا ضعيف، فاللهَ، اللهَ فى أمرى، وفَعَلَ الضريرُ مثلَ ذلك.

وفتّشتُ الخيْطيّـة فلم أجدُ شيئًا، فرحمتُهُـما، وقلت: هذه محنة لا أدرى كيف التخلّص منها، وخرْجنا، فعـملتُ على الهرب. وأخذ كلّ واحد منّا طريقًا، وبِتُّ فى بيتى، ولم أمْضِ إلى صاحبى، وأنا بليلةٍ عظمية.

فلما أصـبحتُ، عملتُ عـلى الهرب إلى البَصـرة، لأستخـفِى فيهـا أيّامًا، ثم أخرجَ إلى بلد شاسع.

فانحدرتُ، فخـرجتُ فى مُشْرَعة بالبصرة، وأنا أمشى وأتعـثر وأبكى قلقًا على فِراق أهلى وولدى، وذَهاب معيشتى وجاهى، إذ اعترضَنى رجلٌ، فقال: يا هذا، ما بِكَ؟

فقلت: أنا فى شُغْل عنك، فاستحَلفنى، فأخبرتُهُ.

فقال: امْضِ إلى السـجن ببنى نُمَيْر، واشترِ مـعك خبزًا كثيرًا، وشـواءً جيّدًا، وحلوى، وسل السـجّـانَ أن يوصِلـك إلى رجل مـحـبـوس، يقـال له: أبو بكر النقّاش، وقل له: أنا زائره. فإنّك لا تُمنع، ،وإن مُنعتَ فهبْ للسجّـان شيئًا يسيرًا فإنّه يُدخلك إليه، فإذا رأيته فسلّم عليه ولا تخاطبْه حتى تجعلَ بين يديه ما معك، فإن أكل وغسل يديه، فإنه يسألك عن حاجتك، فأخبرْه خَبَرك، فإنّه سيدلّك على مَنْ أخذ مالك، ويرتجِعُهُ لك.

ففعلتُ ذلك، ووصلتُ إلى الرجل، فإذا هو شيخٌ مثقَل بالحديد.

فسلّمتُ عليـه، وطرحْتُ ما معى بين يديه، فـدعا رفقـاءَ كانوا معه، فـأقبلوا يأكلون معه، فلمّا استوفى وغسل يديه، قال: مَن أنت، وما جاء بك؟ فشرحتُ له قِصتى.

فقال: امْضِ الساعةَ لوقتك - ولا تتأخر - إلى بنى هلال، فاقصد الدربَ الفلانىَّ حتى تنتهىَ إلى آخره، فإنّك تشاهد بابًا شَعِثًا[1]، فافتحه وادخل بلا استئذان، فستجد دهليزًا طويلاً يؤدّى إلى بابين، فادخل الأيمن منهما، فسيدخلك إلى دارٍ فيها بيت فيه أوتاد وبَوَارِى، وعلى كلّ وَتَد إزار ومئزر، فانزع ثيابك، وعلّقها على الوَتَد، واتزر بالمئزر واتّشح بالإزار، واجلس، فسيجىء قوم يفعلون كما فعلتَ، إلى أن يتكاملوا، ثم يؤتون بطعام فَكُلْ معهم، وتعمّد أن تفعل كما يفعلون فى كلّ شىء.

فإذا أتوا بالنبيذ فاشرب معهم أقداحًا يسيرة، ثم خذ قدحًا كبيرًا، فاملأه، وقم، وقل: هذا سَارِى[2] لخالى أبى بكر النقّاش، فسيضحكون ويفرحون، ويقولون: هو خالُك؟ فقل: نعم، فسيقومون ويشربون لى، فإذا تكامل شربهم لى، وجلسوا، فقل لهم: خالى يقرأ عليكم السلام، ويقول لكم: بحياتى يا فتيان، رُدُّوا على ابن أختى المِئْزَرَ الذى أخذتموه أمس من السفينة بنهر الأبُلّة، فإنّهم يردّونه عليك.

فخرجتُ من عنده، ففعلتُ ما قال لى: وجرت الصورة، على ما ذكر، سَوَاءً بسواءٍ، ورُدَّت الفوطة علىَّ بيعنها، وما حُلَّ شدّها[3].

فلما حصلتْ لى، قلتُ لهم: يا فتيان، هذا الذى فعلتموه هو قضاءٌ لحق خالى، وأنا لى حاجة تخصّنى.

فقالوا: مقضيّة.

فقلت: عرّفونى كيف أخذتم الفوطة؟ فامتنعوا، فأقسمتُ عليهم بحياة أبى بكر النقّاش.

---

(١) الشعث: غير المنسّق أو المنتظم.

(٢) هذا كما يقال الآن: هذا نخب فلان، أو نشرب على شرف فلان!! وقرأتُ فى بعض المصادر أن هذه العبارة تحريف والأصل: «سرورى».

(٣) أى أن صرة النقود كانت لا تزال مربوطة على حالها، وهذا يعنى أن اللص لا يفتح ما جمع إلا فى هذا المجلس العام.

فقال لى واحد منهم: تعرفُنى؟ فتأمّلتُه، فإذا هو الضرير الذى كان يقرأ. وإنّما كان يَتَعَامَى حيلةً ومكرًا.

وأومأ إلى آخر، وقال: أتعرف هذا؟ فتأملته، فإذا هو الملاّح بعينه.

فقلت: أخبرانى كيف فعلكما؟

فقال الملاّح: أنا أدور فى المشارع[1] فى أوّل أوقات المساء، وقد سبَّقْتُ المتعامى فأجلستُهُ حيث رأيت، فإذا رأيتُ مَن معه شىء له قدر، ناديته وأرخصتُ عليه الأجرةَ وحملته، فإذا بلغ إلى القارئ، وصاح بى، شتمته، حتى لا يشكَّ الراكب فى براءة الساحة، فإن حمله الراكب فذاك، وإن لم يحمله رقّقته حتى يحمله، فإذا حمله، وجلس هذا يقرأ قراءتَه الطيّبةَ، ذَهِلَ الرجل كما ذَهِلْتَ أنت، فإذا بلغنا إلى موضع نكون قد خلّينا فيه رجلاً متوقّعًا لنا، يسبح حتى يلاصقَ السفينة، وعلى رأسه قوْصَرة[2]، فلا يفطن الراكب، فيستلب هذا الرجل المتعامى - بخفّة - الشىء الذى قد عينّا عليه، فيلقيه إلى الرجل الذى عليه القَوْصَرة، فيأخذها ويسبح إلى الشطّ، فإذا أراد الراكبُ النزول، وافتقد ما معه، عملنا كما رأيت، فلا يتّهمنا، ونتفرَّق، فإذا كان الغد، اجتمعنا واقتسمنا ما أخذناه، واليوم كان يوم القسمة، فلما جئتَ برسالة خالك أستاذنَا، سلّمنا إليك الفوطة.

قال: فأخذتُها، وانصرفت.

●●●

(١) المشرعة: ما نطلق عليه الموردة.

(٢) القوصرة: ما يشبه الزنبيل أو المقطف.

٦- سَيْكُولُوجِيَّة الرِّشْوَة

ورد علينا فى وقت من الأوقات، بعض العـمّال[١] متلقـدًا للأهواز، من قِبَلِ السلطان، فتتّبع رسومَنا[٢]، ورَامَ نقضَ شىء منها.

فكنتُ أنا وجمـاعة من التُّنَّاء[٣] فى المطالبة، وكان فيـها ذَهاب غلاّتنا فى تلك السنة، لو تمّ علينا، وذَهاب أكثر قيمة ضياعنا.

فقال لى الجماعة: ليس لنا غيرُك، تخلو به، وتبذل له مِرْفَقًا[٤]، وتكفيناه.

فجئتُه، وخلوتُ به، وبذلتُ مِرْفقًا جليلاً، فلم يقبْله، ودخلتُ عليه بالكلام من غير وجه[٥]، فما لاَنَ، ولا أجابَ.

فلمّا يئستُ منه، وكدتُ أن أقـوم، قلتُ له: يا هذا الرّجل، أنت مقيمٌ من هذا الأمـر، على خطأ شديد، لأنّك تظلمـنا، وتُزيل رسومَنا، من حـيث لا يَحْمَـدُك السلطان، ولا تنتفع أنت أيضًا بذلك.

ومع هذا فأخـبرنى، هل تأمن أن تكون قـد صُرِفْتَ[٦]، وكتـاب صَرْفكَ فى الطريق، يَرِدُ عليك بعد يـومين أو ثلاثة، فتكون قد أهـلكتنا، وأثِمْتَ فى أمورنا، وفاتك هذا المرفـق الجليل، ولعلـنا نحن نُكـفى، ويجـىء غـيرك، فلا يـطالبـنا، أو يطالبنا فنبذل له نحن هذا المرفْق، فيقبله، ويكون الضرر يدخلُ عليك؟

فحين سمع هذا وافـق، وكأنّه قد علم من أمره ضعفًا ببـغداد، وتلونًا وأنّى قد أحسستُ بانحلال أمره، وأنّ لى ببغداد مَن يكاتبنى بالأخبار.

---

(١) العمّال: كبار الموظفين (عكس الآن) من الحكام والمديرين.

(٢) الرسوم: الأمور المتفق عليها، والحقوق المكتسبة.

(٣) التنّاء: الملاك والأثرياء. وهذا يعنى أنه حين تشدد العامل فى نقض بعض الإعـفاءات، قرر كـبار الملاك رشوته ليبقى الأمر على ما هو عليه، وفى ذلك دلالة على ارتشاء من سبقوه إلى شغل الوظيفة.

(٤) المرفق: الرشوة، ويجمع على: مرافق.

(٥) أى: أغريته بأكثر من طريقة.

(٦) صرفت: فصلت عن عملك!!

فأخذ يخاطبنى مخاطبةَ من أين وقع إلىّ هذا، فقوّيتُهُ فى نفسه، فأجاب إلى أخذ المِرْفَق، وإزالة المطالبة.

فسلّمتُ إليه رِقاعًا إلى الصيارف بالمال، وأخذتُ منهُ حُجّةً بزوال المطالبة[1]، فانصرفتُ وقد بلغتُ ما أردت.

فلمّا كان بعد خمسة أيّام، ورد عليه كتاب الصَّرْف، فدخلتُ إليه، فأخذ يشكرنى ويخبرنى بما ورد عليه، فأوهمتُه أنّى كنتُ قلتُ له ذلك عن أصل[2]، وكُفِينَاه.

●●●

(١) حجة بزوال المطالبة: ما نطلق عليه: خُلُو طَرف.

(٢) أى أننى كنت أعرف مقدمًا بأنه سيفصل عن عمله حقيقة.

٧- ثراء العلماء

وجدتُ فى بعض الكتب عن الأصْمَعِىِّ، قال:

كنتُ بالبصرة، أطلب العلم، وأنا مُقِلّ [١]، وكان على بابُ زقاقنا بقّال إذا خرجتُ باكرًا يقول لى: إلى أين؟ فأقول: إلى فلان المُحدِّث، وإذا عدتُ مساءً، يقول لى: من أين؟ فأقول: من عند فلان الأخبارىّ، أو اللّغوى.

فيقول: يا هذا، اقبل وصيّتى، أنت شابّ، فلا تضيّع نفسَك، واطلب معاشًا يعود عليك نفعُه، وأعطنى جميعَ ما عندَك من الكتب، حتّى أطرحَها فى الدَّن[٢]، وأصبَّ عليها من الماء للعشرة أربعة، وأنبّذة، وأنظر ما يكون منه، والله، لو طلبتَ منّى، بجميع كتبك، جَزْرَة بَقْل[٣] ما أعطيتك.

فيضيق صدرى بمداومته هذا الكلام، حتّى كنت أخرج من بيتى ليلاً، وأدخله ليلاً، وحالى - فى خلال ذلك - تزداد ضيقًا، حتّى أفضيتُ إلى بيع آجر[٤] أساسات دارى، وبقيتُ لا أهتدى إلى نفقة يومى، وطال شَعرى، وأخْلَقَ ثوبى، واتّسخ بدنى.

فأنا كذلك، مُتحيّرًا فى أمرى، إذ جاءنى خادمٌ للأمير محمّدِ بنِ سليمان الهاشمىِّ، فقال: أجِبْ الأمير.

فقلت: ما يصنع الأمير برجل بلغ به الفقر إلى ما ترى؟

فلمّا رأى سوء حالى، وقُبْحَ منظرى، رجع فأخبر محمّد بن سليمان بخبرى، وعاد إلىّ، ومعه تُخُوتُ ثياب، ودُرْج فيه بَخور، وكيس فيه ألف دينار.

وقال: قد أمرنى الأمير، أن أدخلك الحمّام وألبسك من هذه الثياب، وأدَعَ باقيها عندك، وأطعمك من هذا الطعام، وإذا بخُوان كبير فيه صنوف الأطعمة،

---

(١) مقلّ: قليل المال فقير.

(٢) الدنّ: الوعاء يشبه البرميل، والعبارة تعنى السخرية من الكتب.

(٣) الجزرة: الحزمة. (٤) الآجر: الحجارة.

وأبخرك، لترجعَ إليك نفسُك، ثمّ أحملك إليه. فسررتُ سروراً شديداً، ودعوتُ له، وعملتُ ما قال، ومضيْتُ معه، حتّى دخلتُ على محمّد بن سليمان، فسلّمتُ عليه، فقرّبنى، ورفعنى.

ثم قال: يا عبدَ الملك، قد اخترتُك لتأديب ابن أمير المؤمنين، فاعمَل على الخروج إلى بابه، وانظر كيف تكون؟

فشكرته، ودعوتُ له، قلت: سمعًا وطاعة، سأخرِخُ شيئًا من كتبى وأتوَجَّه.

فقال: ودَّعنى، وكن على الطريق غداً.

فقبّلتُ يده، وقمتُ، فأخذتُ ما احتجتُ إليه من كتبى، وجعلتُ باقيها فى بيت، وسددتُ بابَه، وأقعدت فى الدار عجوزًا من أهلنا، تحفظها.

وبَاكَرَنِى رسولُ الأمير محمّد بن سليمان، وأخذنى، وجاء بى إلى زَلاَّل[1] قد اتُّخذ لى، وفيه جميع ما أحتاجُ إليه، وجلس معى يُنفق على[2]، حتى وصلتُ إلى بغداد.

ودخلتُ على أمير المؤمنين الرّشيد، فسلّمتُ عليه، فردّ علىّ السلام.

وقال: أنت عبدُ الملك بن قَرِيب الأصمعىُّ.

قلت: نعم، أنا عبد أمير المؤمنين ابن قريب الأصمعى.

قال: اعلم، أنْ وَلَدَ الرجل مُهجةُ قلبه، وثَمَرةُ فؤاده، وهو ذا أسْلم إليك ابنى محمّدًا[3] بأمانة الله، فلا تعلّمه ما يُفسد عليه دينَه، فلعلّه أن يكون للمسلمين إمامًا.

قلت: السمع والطاعة.

فأخرجه إلىّ، وحُوِّلتُ معه إلى دار، قد أخْلِيَتْ لتأديبه، وأخْدَمُ فيها من أصناف الخدم، والفُرُش وأجرىَ علىّ فى كلّ شهر عشرةُ آلاف درهم، وأمر أن تُخْرَج إلىّ فى كلّ يوم مائدة، فَلَزِمتُهُ.

---

(١) الزلال: نوع من سفن السفر للطبقة الثرية.

(٢) هنا بمعنى: يقوم على خدمتى.

(٣) محمد: هو الأمين، ولى عهد الرشيد.

وكنتُ مع ذلك: أقضى حوائج النّاس، وآخذ عليها الرغائب[1]، وأنفذُ جميعَ ما يجتمع لى، أوّلاً، فأوّلاً، إلى البصرة، فأبنى دارى، وأشترى عَقارًا، وضياعًا.

فأقمتُ معه، حتَّى قرأ القرآن، وتفقّه فى الدِّين، وروى الشِعر واللّغة، وعَلِمَ أيّامَ النّاس وأخبارَهم.

واستعرضه الرّشيد، فأعجب به، وقال: يا عبد الملك، أريد أن يُصَلّىَ بالنّاس، فى يوم الجمعة، فاختر له خُطبة، فحفّظه إيّاها.

فحفّظته عشرًا، وخرج، فصلّى بالنّاس، وأنا معه، فأعجبَ الرّشيد به، وأخذه نثار الدنانير والدراهم من الخاصّة والعامّة، وأتتنى الجوائزُ والصِّلات من كلّ ناحية، فجمعتُ مالاً عظيمًا.

ثمّ استدعانى الرّشيد، فقال: يا عبد الملك: قد أحسنتَ الخِدْمة، فَتَمَنَّ.

قلت: ما عيسى أن أتمنّى، وقد حزتُ أمانىّ.

فأمر لى بمال عظيم، وكُسوة كثيرة، وطِيب فاخر، وعبيد، وإماء، وظَهْر[2]، وفُرش، وآلة.

فقلت: إن رأى أمير المؤمنين، أن يأذن لى فى الإلمام بالبصرة، والكتابةَ إلى عامله بها، أن يطالِبَ الخاصّة والعامّة، بالسّلام علىّ ثلاثةَ أيّام، وإكرامى بعد ذلك.

فكتبَ إليه بما أردتُ، وانحدرتُ إلى البصرة، ودارى قد عَمُرت، وضياعى قد كَثُرت، ونعمتى قد فَشَت، فما تأخّر عنّى أحد.

---

(١) الأصمعى: يذكر هنا أنه كان يتوسط الناس عند أهل الحكم، ويقبل الهدايا ويحولها على الفور من بغداد إلى مدينته «البصرة» ومثل هذا يحتال أهل زماننا من أصحاب السلطان، حتى لا يلاحظ الناس اتساع ثرواتهم، أو تنتبه إليهم النيابة الإدارية بعد أن تنتهى وظائفهم!!

(٢) الظهر: الدابة كالحصان والبعير، والآلة: الأثاث.

فلمّا كـان فى اليوم الثـالث، تأمّلتُ أصاغـر مَن جاءنى، فـإذا البقّـال، وعليه عـمامـة وَسخـة، ورداءٌ لطيف، وجُـبّـةٌ قصـيرة، وقـمـيصٌ طويل، وفى رجله جَرْموقان[1]، وهو بلا سراويل.

فقال: كيف أنت يا عبد الملك؟

فاستضحكتُ من حماقته، وخطابه لى بما كان يخاطبنى به الرّشيد.

وقلت: بخير، وقد قـبِلت وصيّتك، وجمعتُ ما عندى من الـكتب، وطرحتُها فى الدَّنّ، كما أمرتَ، وصببتُ عليها من الماء للعشرة أربعة، فخرج ما ترى.

ثمّ أحسنتُ إليه بعد ذلك، وجعلتُه وكيلى.

***

(١) الجرموق: يشبه «البوت» وكان يُلبس قديمًا فوق الخفّ لحمايته من الطين.

٨- أذان مُنْتَصَف اللّيل

حدّثنى أبو الحسن محمد بن عبد الواحد الهاشمى:

أن شيخًا من التجّار، كان له على بعض القُوّاد، مال جليل ببغداد، فَمَاطَلَهُ به، وجَحَدَهُ إياه، واستخف به.

قال: فعَزَمتُ على التظلم إلى المتعضِد[1]، لأنى كنتُ تظلّمت إلى عبيد الله ابن سليمان الوزير، فلم ينفعنى ذلك.

فقال لى بعض إخوانى: علىَّ أن آخذ لك المال، ولا تحتاج إلى أن تتظلّم إلى الخليفة، قم معى السّاعة، فقمتُ معه.

فجاء بى إلى خيّاط فى سوق الثلاثاء، يَخيِط، ويُقرئ القرآن فى مسجدٍ، فقص عليه قصّتى، فقام معنا.

فلما مشْينا، تأخّرت، وقلتُ لصديقى: لقد عرضت هذا الشيخ، وإيانا، لمكروهٍ عظيم، هذا إذا حصل على باب الرجل، صُفِعَ، وصُفِعْنا معه، هذا لم يلتفت إلى شفاعة فلان، وفلان، ولم يفكّر فى الوزير، فكيف يفكّرُ فى هذا الفقير؟

فضحك، وقال: لا عليك، امش، واسكُتْ.

فجئنا إلى باب القائد، فحين رأى غلمانه الخيّاط، أعظموه وأهووا لتقبيل يده، فمنعهم من ذلك، وقالوا: ما جاء بك أيها الشيخ، فإن صاحبنا راكبٌ[2]، فإن كان لك أمر يتم بنا بادرْنا إليه وإلا فادخل، واجلس إلى أن يجىء، فقَوِيَتْ نفسى بذلك، ودخلنا وجلسنا.

وجاء القائد، فلما رأى الشيخ أعظمه إعظامًا تامّاً، وقال: لستُ أنزع ثيابى، أو تأمرُنى بأمرك.

---

(١) المعتضد: أحد خلفاء بنى العباس الأقوياء.

(٢) العبارة تعنى أن سيدهم فى مهمة خارج بيته.

فخاطبه في أمرى، فقال: والله، ما عندى إلا خمسةُ آلاف دِرهم تسأله أن يأخذَها، وأعطيه رهنًا فى باقى ماله.

فبادرتُ إلى الإجابة، فأحضر الدراهم، وحُلياً بقيمة الباقى، فقبَضْتُ ذلك منه، وأشهدتُ عليه الرّجل، وصديقى، أنّ الرهن عندى إلى أجل، فإن حلَّ الأجَلُ ولم يعطنى، فقد وكّلنى فى بيعه، وقبْض ما لى من ثمنه، فخرجنا، وقد أجاب إلى ذلك.

فلما بلَغنا مسجد الخيّاط، قلتُ له: قد ردّ الله تعالى علىّ هذا المال بسببك، فأحبُّ أن تأخذَ منه ما أحببت، بطيبة من قلبى.

فقال: ما أسرع ما كافأتنى على الجميل بالقبيح، انصرف، بارك الله لك فى مالك.

فقلت: قد بَقيت لى حاجة.

قال: قُل.

قلت: تُخبرنى عن سبب طاعته لك، مع تهاونه بأكثر أهل الدولة.

فقال: قد بلغتَ مرادك، فلا تقطعنى عن شغلى، وما أعيشُ به.

فألححتُ عليه، فقال: أنا رجلٌ أصلى بالناس فى هذا المسجد، وأقْرئُ القرآن، منذ أربعين سنة، ومعاشى من هذه الخياطة، لا أعرف غيرها.

وكنتُ منذ دهر، قد صليتُ المغرب، وخرجت أريد منزلى، فاجتزتُ بتُركىّ كان فى هذه الدار، وامرأةٍ جميلة مجتازة، وقد تعلّق بها وهو سكران، ليدخلها داره، وهى ممتنعة تستغيث، وليس من أحد يُغيثها، أو يمنعه منها، وتقول فى جملة كلامها: إن زوجى قد حلَف علىّ بالطلاق، أن لا أبيت بَرًّا، فإن بيتنى، خَرِب بيتى، مع ما يرتكبه منى من الفاحشة.

قال: فَرَفقت به وسألته تركها، فضرب رأسى بدبوس كان فى يده فشجّنى، ولكمنى، وأدخل المرأة بيته.

فصـرتُ إلى منزلى، وغسلتُ الدم، وشددت الشـجة، واسـترحتُ، وخرجتُ لصلاة العشاء الآخرة.

فلما صلّينا، قلتُ لمن معى فى المسجـد، قوموا بنا إلى عدوّ الله، هذا التركى، لنُنكرَ عليه، ولا نبرح، أو نُخْرج المرأة.

فقامـوا، وجئنا فَضَجَـجْنَا على بابه، فخرج إلينا فى عدة غلمـان، فأوْقع بنا، وقصدنى من بين الجماعة، فضربنى ضربًا عظيمًا كدت أتلف منه، فحملنى الجيران إلى منزلى كالتالف، فـعالجنى أهلى، ونمتُ نومًا قليلاً، وقـمتُ نصف الليل، فما حملنى النوم، للألم، والفكر فى القصّة.

فقلت: هذا قد شَرِب طول ليلته، ولا يعرف الأوقات، فلو أذّنْتُ، لوقع له أن الفـجر قـد طلع، وأطلق المرأة، فلحقَـت بيتـها قـبل الفجـر، فسلمت من أحـد المكروهين[1].

فخرجتُ إلى المسجد متحـاملاً، وصعدتُ المنارة، فأذنتُ، وجلستُ أطلع منها إلى الطريق، أترقّب خروج المرأة، فإن خرجَتْ وإلا أقمتُ الصلاة، لئلا يشك فى الصباح، فيخرجها.

فـما مـضت إلا ساعـة، والمرأة عنده، حـتى رأيتُ الشارع قـد امتـلأ خيـلاً، ورجالاً، ومشاعلَ، وهم يقولون: مَنْ أذن الساعة ففزعتُ، وسكتُّ.

ثم قلت: أخاطبهم، لعلى أستعين بهم على إخراج المرأة، فصِحتُ من المنارة: أنا أذنتُ.

فقالوا لى: انزل، وأجب أمير المؤمنين.

فقلت: دنا الفَـرَجُ، فنزلتُ، فإذا بدر[2]، وعدّة غلمان، فـحملنى، وأدخلنى على الـمُعتضِد، فلما رأيته هِبْتُه، وارتعتُ، فسكّن منى.

---

(١) المكروه الأول هو الاعتداء على شرفها وقد حدث، والآخر تعرضها لطلاق زوجها، وهو محتمل!!

(٢) بدر من موالى المعتضِد المقربين جداً.

وقال: ما حملك على أن تغرّ المسلمين بأذانك فى غير وقته، فيخرج ذو الحاجة فى غير وقتها، ويمسك المريد للصوم، فى وقت قد أباح الله له الأكل فيه، وينقطع العَسَسُ والحرس عن الطواف؟

فقلت: يؤمِّننى أميرُ المؤمنين، لأصْدُقه.

فقال: أنت آمن.

فقصصتُ عليه قصّة التركىّ، وأريتُه الآثار.

فقال: يا بدر، علىّ بالغلام الساعة والمرأة، وعُزِلتُ فى موضعٍ.

فمضى بدر، وأحضر الغلام والمرأة، فسألها المعتضد عن الصورة، فأخبرتْهُ بمثل ما أخبرتُه.

فقال لبدر: بادر بها الساعة إلى زوجها، مع ثقةٍ يُدخلُها دارها، ويشرح لزوجها القصة، ويأمره عنى بالتمسّك بها، والإحسان إليها.

ثم استدعانى، فوقفتُ بإزائه، فجعل يخاطب الغلام، وأنا واقف أسمع.

فقال له: كم جرايتُك؟

قال: كذا وكذا.

قال: وكم عادتك؟

قال: كذا وكذا.

قال: وكم صِلاتك؟

قال: كذا وكذا.

قال: وكم جارية لك؟

قال: كذا وكذا، فذكر عدة جوارى.

قال: أفما كان فيهن، وفى هذه النعمة العريضة، كفايةٌ عن ارتكاب معصية الله تعالى، وخرق هيبة السُلطان، حتى استعملت ذلك، وجاوزته إلى الوثوب بمن أمرك بالمعروف؟ فأسْقِط الغلامُ فى يده، ولم يَحِرْ جوابًا.

فقال: هاتوا جوالقًا[1]، ومداق الجص[2] وأدخلوه الجوالق، ففعلوا ذلك به.

وقال للفراشين: دُقُّوه، وأنا أسمع صياحه، إلى أن مات، فأمر به، فطُرِح فى دِجلة، وتقدّم إلى بدر، أن يُحمل ما فى داره.

ثم قال لى: يا شيخ، أى شىء رأيتَ من أجناس المُنْكر، كبيرًا كان أو صغيرًا، أو أى أمر عنَّ لك، فمر به، وأنكر المُنْكر، ولو على هذا -وأومأ إلى بدر- فإن جرى عليك شىء، أو لم يُقْبل منك، فالعلامة بيننا أن تؤذن فى مثل الوقت الذى أذنت فيه، فإنى أسمعُ صوتك، وأستدعيك، وأفعلُ هذا بمن لا يقبل منك.

فدعوتُ له، وانصرفت.

وانتشر الخبر فى الأولياء والغلمان، فما خاطبتُ أحدًا بعدها فى إنصاف أحد، أو كفٍّ عن قبيح إلا أطاعنى كما رأيت، خوفًا من المعتضد.

وما احتجتُ إلى الأذان فى مثل ذلك الوقت.

●●●

(١) جوالق: (جمع جَوَلق): أكياس أو زكائب.

(٢) الجص: الجير.

٩- مُعاينة طبية

دخلتُ يومًا على القاضى أبى الحسين بن أبى عمر، وهو مغموم، فقلت: لا يغمّ الله قاضى القضاة، ما هذا الحزن الذى أراه به؟

قال: مات يزيدُ المائىُّ[١].

فقلت: يُبقى الله قاضى القضاة، ومن يزيد المائى، حتى إذا مات اغتمَ عليه قاضى القضاة، هذا الغمَّ كلّه؟

فقال: ويحُك، مثلك يقول هذا فى رجل كان أوْجَد زمانه فى صناعته، وقد مات وما ترك أحدًا يقاربه فى حِذْقه، وهل فخر البلدان إلا بكثرة رؤساء الصنائع، وحُذّاق أهل العلوم فيها؟ فإذا مضى رجل لا مثيل له فى صناعة لابد للناس منها، فهل يدل هذا إلا على نقصان العالم وانحطاط البلدان؟!

ثم أقبل يعدّد فضائله، والأشياء الطريفة التى عالج بها، والعللَ الصعبة التى زالت بتدبيره، فذكر من ذلك أشياء كثيرة، منها:

قال: أخبرنى منذ مدة رجلٌ من جِلّة أهل البلد، أنه كان حدث بابنة له علّة طريفة[٢]، فكتمتْ أمرها، ثم اطّلع عليها أبوها، فكتمها هو مُدَيْدَةَ[٣]، ثم انتهى أمر البنت إلى حدّ الموت.

قال: وكانت العلة، أن فَرْجَ الصبية كان يَضْربُ عليها ضربًا عظيمًا لا تنام معه الليل ولا النهار، وتصرخ أعظم صُراخ، ويجرى فى خلال ذلك منه دمٌ يسير كماء اللحم، وليس هناك جرح يظهر، ولا ورم.

قال: فلما خِفْتُ المأثم، أحضرتُ يزيد، فشاورته.

---

(١) المائى: نسبة إلى الماء، والمقصود هنا: البول، فعمل هذا الرجل النظر فى البول، أو ما نعرفه الآن بتحليل البول، وسنرى من هذه القصة ما يدل على خبرة الرجل وفطنته.

(٢) الطرافة -هنا- تعنى الندرة.

(٣) أى زمنًا قصيرًا.

فقال: أتأذن لى فى الكلام، وتبسُط عُذرى فيه.

فقلت له: نعم.

قال: لا يُمكننى أن أصف لك شيئًا، دون أن أشاهد الموْضع بعينى، وأفتّشَه بيدى، وأسْأل المرأة عن أسباب لعلها كانت الجالبة للعلّة.

قال: فَلعظم الصورة، وبلوغها حد التّلف، أمكنتُه من ذلك.

فأطال المساءلة، وحدّثها بما ليس من جنس العلّة، بعد أن جَسّ الموضع من ظاهره، وعرف بُقعة الألم، حتى كدتُ أن أثِب به. ثم صبرتُ، ورجعتُ إلى ما أعرفه عن سيرته، فصبرتُ على مضض.

إلى أن قال: تأمرُ من يُمسكها، ففعلتُ.

فأدخل يده فى الموضع دخولاً شديدًا، فصاحت الجاريةُ، وأغمى عليها، وانبعث الدم، وأخرج يديه وفيها حيوان أقل من الخُنفساء، فرمى به.

فجلست الجارية فى الحال، وقالت: يا أبة، استرنى، فقد عُوفيتُ.

فأخذ يَزيدُ الحيوان بيده، وخرج من الموضع، فلحقته، فأجلسته.

وقلت: أخبرنى ما هذا؟

فقال: إن تلك المساءلة التى لم أشك من أنّك أنكرتَها، إنّما كانت لأطلب دليلاً أستدلُّ به على سبب العِلّة.

إلى أن قالت لى الصبيّة: إنها فى يوم من الأيّام، جلسَتْ فى بيت دُولاب البقر[1]، فى بُستان لكم، ثم حدثت العِلّة بها، من غير سبب تعرفه، فى غد ذلك اليوم.

فتخيّلت أنّه قد دبّ فى فَرْجها من القُراد[2] الذى يكون على البقر - وفى بيوت البقر قراد - قد تمكّن من أوّل داخل الفَرْج، فكلّما امتصّ الدم من موضعه ولّد

(١) دولاب البقر: الساقية.

(٢) القرادة: حشرة تلتصق بجلد الحيوان وتعيش على امتصاص دمه.

الضَّرَبان، وأنه إذا شبع، خفّ الضربان، ولانقطاع مصّه، ونقَّط من الجرح الذى يمتص منه إلى خارج الفَرْج.

فقلت: أدخل يدى، وأفتّش.

فأدخلتُ يدى، فوجدتُ القراد كما حَدَسْت، فأخرجتُه، وهذا هو الحيوان، وقد تغيّرت صورتُه لكثرة ما امتص من الدم، مع طول الأيام.

قال: فتأمّلنا الحيوان، فإذا هو قُراد، وبَرِئت المرأة.

●●●

١٠- الحُرَّةُ... والجَارِية

قال محمد بن عَبْدوس فى كتاب «الوزراء»: إن إبراهيم بن العباس الصولى، قال:

كنتُ أكتبُ لأحمد بن أبى خالد، فدخلتُ عليه يومًا. فرأيتُه مُطرِقًا، مفكّرًا، مغمومًا، فسألته عن الخبر.

فأخرج إلىّ رُقعةً، فإذا فيها أن حَظِيَّةً [١] من أعز حواريه عنده يخالفُ إليها، وتُوطىء فراشه غيره، ويستشهد فى الرقعة، بخادمين كانا ثقتين عنده.

وقال لى: دعوتُ الخادمين، فسألتهما عن ذلك، فأنكرا، فتهددتُهُما، فأقاما على الإنكار، فضربتهما، وأحضرتُ لهما آلة العذاب، فاعترفا بكل ما فى الرُّقعة على الجارية، وإنى لم أذق أمسِ ولا اليوم طعامًا، وقد هَمَمْتُ بقتل الجارية.

فوجدتُ بين يديه مصحفًا، ففتحته لأتفاءل بما يخرج فيه، فكان أوّل ما وقعت عينى عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]... الآية، فشككتُ فى صِحّة الحديث، وأريته ما خرج به الفأل.

وقلت: دعنى أتلطف فى كشف هذا.

قال: افعل.

فخلوتُ بالخادمين منفردين، ورَفَقْتُ بأحدهما، فقال: النارُ ولا العارُ، وذكر أن امرأة ابن أبى خالد، أعطته ألف دينار، وسألته الشهادة على الجارية، وأحضرنى الكيس مختومًا بخاتم المرأة، وأمَرَتْهُ أن لا يذكر شيئًا إلا بعد أن يُوقع به المكروه، ليكون أثبتَ للخبر، ودعوتُ الآخر، فاعترف بمثل ذلك أيضًا.

---

(١) الحظية: الجارية المخصصة لإمتاع سيدها، فليست للخدمة.

فبادرتُ إلى أحمد بالبشارة، فما وصلتُ إليه، حتى جاءته[1] رُقعةُ الحُرّة، تُعْلمه أن الرقعة الأولى كانت من فعلها، غَيْرة عليه من الجارية، وأن جميع ما فيها باطل، وأنها حملت الخادمين على ذلك، وأنها تائبة إلى الله تعالى من هذا الفعل وأمثاله.

فجاءته براءة الجارية من كل وجه فَسُرّ بذلك، وزال عنه ما كان فيه، وأحسن إلى الجارية.

●●●

(١) الرقعة: قصاصة الورق، أو الرسالة.

١١- والقضيَّةُ.. جارية!!

وقد كان فيما يقارب عصرنا مثل هذا، وهو ما حدَّثنى به أبو الحسن على ابن عمر الدارقُطنى الحافظ، قال: حدَّثنى أبو أحمد محمد بن أحمد الجُرجانى الفقيه، قال:

كنا ندرُسُ على أبى إسحاق المرْوَزِى الشافعى، وكان يدرس عليه معنا فتى من أهل خُراسان، له والد هناك، وكان يوجِّه إليه فى كل سنة، مع الحاج، قدر نَفَقَة السنة.

فاشترى جارية، فوقعت فى نفسه، وألِفَها، وألِفَتْه، وكانت معه سنين.

وكان رسمُه أن يستدين فى كل سنة، دَيْنًا، بقدر ما يعجز من نفقته، فإذا جاء ما أنفذه أبوه إليه، قضى دَيْنه، وأنفق الباقى مدة ثم عاد إلى الاستدانة.

فلما كان سنة من السنين. جاء الحاج، وليس معهم نفقةٌ من أبيه.

فسألهم عن سبب ذلك، فقالوا له: إنَّ أباك اعتلّ علّة عظيمة صعبة، واشتغل بنفسه، فلم يتمكن من إنفاذ شىء إليك.

قال: فقلق الفتى قلقًا شديدًا، وجعل غرماؤه يطالبونه كالعادة، فى قضاء الدَّيْن وقت المَوْسم، فاضطرّ، وأخرج الجارية إلى النخاسين[1]، فعَرَضَها.

وكان الفتى ينزل بالقرب من منزلى، وكنّا نصطحب إلى منزل الفقيه، ولا نكاد نتفارق.

فباع الجارية بألفِ درهم وكَسْر، وعزم على أن يفرّق منها على غُرَمَائه[2] قدر ما لهم، ويُتَموّنُ بالباقى.

وكان قَلِقًا، موجَعًا، متحيّرًا، عند رجوعنا من النخّاسين.

---

(١) النخاس: تاجر الرقيق، الذى يبيع ويشترى العبيد والإماء، والعبارة تعنى: عرض الجارية للبيع.

(٢) الغرماء: أصحاب الدَّيْن المستحق للسداد.

فلما كان الليلُ إذا ببابى يدق، فقمتُ ففتحتُه، فإذا بالفتى.

فقلت: ما لك؟

فقال: قد امتنع علىّ النوم، وقد غلبتنى وحشة الجارية، والشوقُ إليها.

ووجدته من القلق على أمر عظيم، حتى أنكرت عقله، فقلتُ: ما تشاء؟

فقال: لا أدرى، وقد سهل علىّ أن ترجع الجاريةُ إلى ملكى، وأبكّرَ غدًا فأقر لغُرمانى بمالهم، وأحبس فى حبس القاضى، إلى أن يفرِّج الله تعالى عنى، ويجيئنى من خُراسان ما أقضى به دَيْنى فى العام المقبل، وتكون الجارية فى ملكى.

فقلتُ له: أنا أكفيك ذلك فى غدٍ إن شاء الله، وأعملُ فى رجوع الجارية إليك، إذا كنت قد وطّنْت نفسك على هذا.

قال: فبكّرنا إلى السوق، فسألنا عمن اشترى الجارية.

فقالوا: امرأة من دار أبى بكر بن أبى حامد، صاحب بيت المال[1].

فجئنا إلى مجلس الفقيه، فشرحتُ لأبى إسحاق المُرْوزىّ بعض حديث الفتى، وسألتُه أن يكتب رُقعةً إلى أبى بكر بن أبى حامد، يسأله فيها فسخ البيع، والإقالة[2]، وأخذ الثمن، وردّ الجارية، فكتب رُقعة مؤكّدة فى ذلك.

فقمتُ، وأخذتُ بيد الخُراسانى صديقى، وجئنا إلى أبى بكر بن أبى حامد، فإذا هو مجلس حافل، فأمهلنا حتى خف، ثم دَنَوتُ أنا والفتى، فعرفنى وسألنى عن أبى إسحاق المروزى، فقلت: هذه رُقعته خاصة فى حاجةٍ له.

فلما قرأها، قال لى: أنت صاحبُ الجارية؟

قلت: لا، ولكنّه صديقى هذا، وأومأتُ إلى الخُراسانى، وقصصتُ عليه القصّة، وسبب بيع الجارية.

---

(١) صاحب بيت المال: هو وزير الخزانة الآن.

(٢) الإقالة: قبول عذر الفتى، وإعادة الجارية إليه بعد استرداد ثمنها.

فقال: والله، ما أعلمُ أنى ابتعتُ جاريةً فى هذه الأيام، ولا ابتيعت لى.

فقلت: إن امرأة جاءت وابتاعتها، وذكرت أنّها من دارك.

قال: يجوز.

ثم قال: يا فلان، فجاءه خادم، فقال له: امض إلى دُور الحُرُم، فاسأل عن جارية اشتريت أمس، فلم يزل يدخل ويخرج من دار إلى دار، حتى وقع عليها، فرجع إليه.

فقال له: أعَثَرْتَ عليها؟

فقال: نعم، فقال: أحضرها، فأحضرها.

فقال لها: من مولاك؟ فأومأتْ إلى الخُراسانى.

فقال لها: أفتحبين أن أردّك عليه؟

فقالت: والله، ليس مثلك يا مولاى من يُختار عليه، ولكن لمولاى علىّ حق التربية.

فقال: هى كَيِّسَة عاقلة، خُذْها.

قال: فأخرج الخُراسانى الكيس من كُمّه، وتركه بحضرته.

فقال للخادم: امض إلى الحُرُم، وقل لهن: ما كنتن وعدتُن به هذه الجارية من إحسان، فعجلنه الساعة.

قال: فجاء الخادم بأشياءٍ لها قدر وقيمة، فدفعها إليها.

ثم قال للخُراسانى: خُذ كيسَك فاقض منه دَيْنَك، ووسع بباقيه على نفسك وعلى جاريتك، والزم العلم، فقد أجريتُ عليك فى كل شهر قَفِيزَ دقيق، ودينارين، تستعينُ بها على أمرك.

قال: فوالله ما انقطعَتْ عن الفتى، حتى مات أبو بكر بن أبى حامد.

●●●

١٢- ... ويَوْمٌ عليكَ

حدّثنى علىّ بن الحسين بن محمّد بن موسى بن الفرات، قال:

كنتُ أتولّى ماسَبْذَان[١]، وكان صاحب البريد[٢] بها علىٌّ بنُ يزيد، وكان قديمًا يكتب للعبّاس بن المأمون[٣]، فحدثنى: أن العبّاس غضب عليه وأخذ جميع ما كان يملكُه، حتى إنه بقى بـ«سُرّ مَنْ رأى» لا يملك شيئًا، إلا برْذَونه[٤]، بسرجه ولجامه، ومِبْطَنة، وطيلسانًا، وقميصًا، وشاشية، وأنه كان يركب فى أوّل النّهار، فيلقى من يريد لقاءه، ثم ينصرف، فيبعث ببرذونه إلى الكراء، فيكسب عليه ما يَعلفه، وما يُنفقه هو وغلامه[٥].

فاتّفق فى بعض الأيام أن الدابّة لم تكسِب شيئًا، فبات هو وغلامه طاويَيْن، قال: ونالنا من الغد مثلُ ذلك.

فقال غلامى: يا مولاى، نحن نصبر، ولكن الشأن فى الدابّة، فإنّى أخافُ أن تَعْطب.

قلتُ: فأىَّ شىء أعمل؟ ليس إلا السّرج، واللّجام، وثيابى، وإن بعتُ من ذلك شيئًا، تعطّلتُ عن الحركة، وطلب التصرف[٦].

قال: فانظر فى أمرك.

فنظرتُ، فإذا بحصيرى خَلَقٌ، ومخدتى لَبِنَةٌ مغشاة بِخرقة، أدعها تحت رأسى، ومَطهَرَة خزَفٍ للطهور، فلم أجد غير مِنديل دَبيقى[٧] خَلَق، قد بقى منه الرسم.

---

(١) منطقة من بلاد فارس.

(٢) صاحب البريد: المسئول عن مراسلات الدولة فى هذه المنطقة.

(٣) يكتب له: أى بمنزلة مدير أعماله فى لغة زماننا.

(٤) البرذون: دابة بين الحصان والحمار.

(٥) هكذا الحال إذا غضب الكبراء على أتباعهم، تركه بحماره وثيابه لا أكثر، فكان أن الحمار يعوله ويوفر نفقته!!

(٦) طلب التصرّف: البحث عن وظيفة.

(٧) دبيق: قرية مصرية اشتهرت بصناعة الحرير، فإليها نُسِب المنديل.

فقلتُ للغلام: خذ هذا المنديل، فبعه، واشتر علَفًا للدابّة، ولحمًا بدرهم، واشوِه، وجيء به، فقد قَرِمتُ إلى أكل اللحم.

فأخذ المنديل، ومضى، وبقيتُ في الدار وحدى، وفيها شَاهْمَرْج[1] قد جاع لجوعنا، فلم أشعر إلا بعصفور قد سقط في المَطْهَرة التي فيها الماء للطهور، عطشًا، فشرب، فنهض إليه الشاهمرج، فناهضه، فلضعفه ما قصر عنه، وطار العصفور، ووقف الشاهْمَرج، فعاد العصفور إلى المطهرة، فبادره الشَّاهْمَرج فأخذه بحُمية، فابتلعه. فلما صار في حَوْصَلته، عاد إلى المطهرة، فتغسّل، ونشر جناحيه وصاح، فبكيْتُ، ورفعتُ رأسي إلى السماء، وقلت: اللهم، كما فرَّجْت عن هذا الشاهمرج، فرّجْ عنّا، وارزقنا من حيث لا نحتَسِب.

فما رددتُ طرفي، حتى دق بابي، فقلتُ: من أنت؟

قال: أنا إبراهيمُ بنُ يوحنّا، وكيلُ العبّاس بن المأمون.

فقلت: ادخل، فلما نظر إلى صورتي، قال: ما لي أراك على هذه الصورة، فكتمته خبري.

فقال لي: الأميرُ يقرأ عليك السّلام، وقد اصطبح اليوم، وذكرك وقد أمر لك بخمسمائة دينار، وأخرج الكيسَ فوضعَه بين يدي.

فحمَدْتُ الله تعالى، ودعوتُ للعبّاس، ثم شرحتُ له قصّتي، وأطفته في داري وبيوتي، وحدّثته بحديث الدابّة، وما تقاسيه من الضُّرّ، والمنديل، والشاهْمرج، والدعاء، فتوجّع لي، وانصرف.

ولم يلبث أن عاد، فقال لي: صرتُ إلى الأمير، وحدّثته بحديثك كله، فاغتم لذلك، وأمر لك بخمسمائة دينار أخرى، قال: تأنّث بتلك، وأنفق هذه، إلى أن يُفرج الله.

وعاد غلامي، وقد باع المنديل، واشترى منه ما أردتُه، فأريتُه الدنانير، وحدثته الحديث، ففرح حتى كاد أن تنشق مرارتُه.

وما زال صُنْعُ الله يتعاهدُنا.

---

(١) شاهمرج: معناها (بالفارسية): ملك الطيور- نوع من الصقور.

١٣- العَصَبِيَّةُ العربيَّة

وذكر ابن عَبْدوس فى كتاب «الوزراء»، عن ثُمامةَ بن أشْرَس، أنّه قال:

اجتمع النّاس، وجلس لهم الفَضْلُ بنُ سَهْل[١]، على فُرُشٍ مرتفعة، فقام خطيبًا، فحمدَ الله وأثنى عليه، وذكر النبىّ فصلّى عليه، ثمّ ابتدء بالوقيعة فى عبد الله بن مالك الخزاعى[٢]، وذكر أنّه كان يدّعى على الرّشيد - فى حكاية حكاها - دخولَ بيت القيان، وهو كاذبٌ فى ذلك، وهو الذى كان يفعل هذا الفعل، ويدخل المواخيرَ والدساكر، ولا يرفع نفسه عن ذلك، ولا يصونُ عِرضه.

قال ثُمامةُ: ثمّ أقبلَ علىّ، فقال: وإنّ أبا مَعْنٍ، ليعلمُ ذلك، ويعرفُ صحّة ما أقول، فتركتُ تشييع كلامه بالتصديق، وأطرقتُ إلى الأرض، ودخلتنى عصبيةُ العربيّة لابنِ مالك.

ثمّ عاد إلى تهجين عبد الله، والتوسّع فى الدعاوَى عليه، ثمّ أقبلَ علىّ ثانية. وقال: إنّ ثُمامةَ ليعرفُ ذلك، فسكتُّ، وأطرقتُ، وإنّما كان يريد منّى تشييع كلامه بالتصديق.

فلمّا رأى إعراضى عن مساعدته ترك الإقبال علىّ، وأخذ فى خُطبته، حتّى فَرَغَ من أرَبِه فى أمر عبد الله بن مالك.

فلمّا تفرّق النّاسُ عنه، وانصرفْتُ، علمتُ أنّى قد تعرّضت لَمَوْجَدَةِ الفضل، وهو الوزير، وحالى عنده حالى.

فلمّا حَصَلْتُ فى منزلى، جاءنى بعض إخوانى مّمن كان فى ناحية الفضل، قالوا: ماذا صنع أبو مَعْن، يخاطُبه الوزير، فَيُعرِض عنه مرّة بعد أخرى.

---

(١) الفضل بن سهل وزير المأمون، أما ثمامة فأحد علماء عصره.

(٢) عبد الله بن مالك الخزاعى قائد عربى عباسى، أما الفضل بن سهل فهو فارسى... من هنا أدركت ثمامة الغيْرة للنيْل من عبد الله والتشهير به وهو لا يملك الدفاع عن نفسه أمام الوزير.

فـقلت: أنا والله، بالموْجَـدَة[1] عليـه - أعزّه الله - أحقّ، لأنّه قـام فى ذلك الجمع، وقد حضر كلُّ شريف ومشروف، فلم يسـتشهد بى فى خُطبته، وما أجراه فى كلامه، إلا فـى موضع رِيبَةٍ، أو ذِكْر نَبْـوَةٍ، ودارِ مُقَيِّن ومغنّيـة، وما أقدرُ أن أشهد إلا أن أكون مع القوم ثالثًا.

فقالوا: صدقتَ - والله - يا أبا مَعْن، بِئسَ الموضعُ وضعكَ.

فرجع كلامى إليه، فقال: صدقَ واللهِ ثُمامة، وهو بالـمَعْتَبَةِ أحقّ.

واندفعَتْ عنّى مَـوْجَدَتُه، وما كان بى إلاّ مـا داخلنى من الحِمّيّة لعـبدِ الله ابن مالك.

●●●

(١) الموْجَدة: الألم والعتاب.

١٤- عَرَبٌ.. وعَجَم!!

«كان محمدُ بنُ يزيد الأموى الحِصْنى قد أجابَ ساخرًا حين افتخر القائدُ العباسىُّ عبدُ الله بن طاهر (الفارسى) بأبيه. ثم تلاقى الرجلان حين ذهب عبد الله - فى قمة سطوته - إلى الشام. ويروى الحِصْنىُّ بنفسه ما جرى، وكيف انتهى، إذ قال»:

لما بلغنى إجماعُ عبد الله بن طاهر على الخروج لطلب نصر بن شَبَث - الخارجىّ كان فى ذلك الوقت - بنفسه، أيقنتُ بالهلاك، وخفْتُ أن يقرَبَ منّى، فتنالنى منه بادرةَ مكروهٍ، ولم أشكَ فى ذَهاب النعمة، وإن سَلِمت النفس لما بلغه من إجابتى إيّاه، عن قصيدته التى فَخَر بها:

مُدْمِنُ الإغضاء موصولُ ... ومُديمُ العَتْبِ مملولُ
ومَدِينُ البيض فى تعبٍ ... وغَريمُ البيض ممطولُ
وأخو الوجهْين حيث رَمَى ... بهواه فهو مَدْخُولُ

«إلى أن يفخر بأصوله فيقول»:

سائلِى، عما تُسائلُنى ... قد يَرُدُّ الخُبْرَ مسئولُ
أنا مَن تعرفنَّ نسبتَه ... سلفى الغُرُّ البَهاليلُ
مُصْعَبٌ جدّى نقيبُ بنى ... هاشمٍ والأمرُ مجهولُ
وحسينٌ رأسُ دعوتهم ... ودعاء الحق مقبولُ
سلْ بهم تُنبيك نجدتُهم ... مَشْرَفيّاتٌ مصاقيلُ

قال الحِصْنىُّ: وكنتُ لما بلغتنى القصيدةُ، امتعضتُ للعربية، وأنِفْتُ أن يفخر عليها رجل من العَجَم، لأنه قتل ملكًا من ملوكها بسيف أخيه[1]، لا بسيفه،

(١) يشير إلى مقتل الأمين وقد قتله القائد العباسى عبد الله بن طاهر بن الحسين، فكأنما قتله بسيف أخيه المأمون وليس بمقدرته الخاصة.

فيفخر عليها هذا الفخر، ويضع منها هذا الوضع، فَرَدَدْتُ على قصيدته، ولم أعلم أن الأيام تجمعُنا، ولا أن الزمان يضطرنى إلى الخوف منه، فقلت:

لا يَرُعْك القالُ والقيلُ ... كلما بُلِّغْتَ تهويلُ

.....

أيها النَّازى مطيتَه ... لأغاليطكَ تحصيلُ

قد تأولتم على جهةٍ ... ولنا فى ذاك تأويلُ

قاتلُ المخلوعِ مقتولٌ ... ودمُ القاتلِ مطلولُ

قد يخون الرمحَ عاملُهُ ... وسِنانُ الرمح مصقولُ

وينالُ الوِتْرَ طالبُه ... بعد ما تسلو الثاكِيلُ

«ثم يصل إلى التهكمُّ الحاد المُقذع حين يصف آباء عبد الله بن طاهر بقوله»:

يا ابن بيت النّار موقدها ... ما لحاديه سراويلُ

أىُّ مجدٍ فيكَ نعرفه ... أىُّ جدٍّ لك بَهْلولُ

مَن حسينٌ أو أبوك ومَن ... مُصعبٌ غالَتْهُمُ غُولُ

وزُرَيْقٌ إذ تُخَلِّفُه ... نسبٌ عمرُكَ مَجهول

تلك دعوَى لا نناقشها ... وأبوّاتٌ مراذِيلُ

أُسرةٌ ليست مباركةً ... غيرها الشمُّ البهاليلُ

ما جرى في عَودِ أثْلَتِكُم ... ماءُ مَجْد فهو مدخولُ

قَدَحَتْ فيه أسافلُه ... وأعاليه مجاهيلُ

إنّ خيرَ القولِ أصدقُهُ ... حين تصطكّ الأقاويلُ

كُنْ على منهاج معرفةٍ ... لا تغرّنْك الأباطيلُ

قال: فلما قَرُب عبدُ الله بن طاهر منّى، استوحشتُ من المُقام خوفًا على

نفسى، ورأيتُ بُعدى وتسليمى حُرُمى عارًا باقيًا، ولم يكن لى إلى هربى بالحُرُم سبيل، فأقمتُ على أتمّ خوف مستسلمًا للاتّفاق، حتّى إذا كان اليوم الذى قيل إنه ينزل فيه العسكر بهذه النواحى أغلقتُ بابَ حصنى، وأقمتُ هذه الجاريةَ السوداء ربيئةً [1] تنظر لى على مَرْقَب مِن شرَف الحصن، وأمرتُها أن تُعرّفنى الموضع الذى ينزل فيه العسكر قبل أن يفجأنى، ولبِسْتُ ثيابَ الموت أكفانًا، وتطيّبتُ، وتحنّطتُ.

فلمّا رأت الجارية العسكر يقصد حصنى، نزلَتْ فعرّفتنى، فلم يرعْنى إلا دقُّ باب الحصن فخرجتُ، فإذا عبدُ الله بنُ طاهر، واقف وحده، منفردٌ عن أصحابه، فسلّمتُ عليه سلامَ خائفٍ، فردَّ علىَّ غيرَ مُستَوحشٍ، فأومأتُ إلى تقبيل رِجْلِه فى الرِكابِ، فمنع ألْطفَ مَنْعٍ وأحسنَه، ونزل على دكّانٍ على باب الحصن.

ثمّ قال: ليَسكنْ رَوْعُك، فقد أسأتَ الظنّ بنا، ولو علمنا أنّا بزيارتنا لك نَرُوعَكَ ما قصدناكَ.

ثمّ أطال المسألة، حتّى رأى الثقةَ منّى قد ظهرت، فسألنى عن سببُ مقامى فى البرّ [2]، وإيثارى إيّاه على الحاضرة، ورفاهة عيشها، وعن حال ضيعتى ومعاملتى فى ناحيتى، فأجبته بما حضر لى.

حتّى إذا لم يبقَ من التأنيس شىءٌ أفضى إلى مساءلتى عن حديث نَصْرِ ابنِ شَبَث، وكيف الطريق إلى الظَّفَرِ به، فأخبرتهُ بما حَضَرنى [3].

ثمّ أقبل علىّ وقد انبسطتُ فى محادثته كلّ الانبساط، فقال: أحبّ أن تنشدنى القصيدة التى فيها:

يا ابنَ بيْتِ النارِ موقدُها ... ما لحاديه سراويلُ

---

(١) الربيئة: الذى يراقب الطريق.

(٢) البر: البادية.

(٣) هنا يتجلى ذكاء عبد الله بن طاهر فى تحويل مجرى الحديث بالسؤال عن الثائر الخارجى، وفى نفس الوقت يطمئن الحصنى بأنه ليس شاغله.. وسيكون أكبر نفسًا حين يطلب منه أن ينشد أمامه قصيدته فى هجاء آبائه.

فقلت: أصلح الله الأمير، قد أربَتْ نعمتُك على مِقدار همّتى، فلا تكدّرْها بما ينغّصُها.

فقال: إنّما أريد الزيادةَ فىَ تأنيسك، بأن لا ترانى متحفظًا مما خفْتَ، وعزم علىَّ في إنشادها، عزم مُجِدٌّ فقلت: يريد أن تطرأ على سمعه، فيثورُ ما فى نفسه، فيوقعُ بى. ولم أجد من إنشادها بُدّاً، فأنشدتُهُ القصيدة، فلمّا فَرغْتُ منها، عاتبنى عتابًا سهلاً، فكان منه أن قال: يا هذا، ما حملَكَ على تكلّف إجابتى؟

فقلت: الأميرُ أصلحه الله، حمَلَنى على ذلك بقوله:

وأبى مَن لا كِفاء له ... مَن يُسامى مجدَه؟ قولوا!

فقلتُ كما تقول العرب، وتفتخر الثُّوقَةُ على الملوك، وكنتُ لما بلغتُ إلى قولى:

يا ابنَ بيْتِ النّارِ موقدها ... ما لحاديه سراويلُ

قال لى: يا ابنَ مسلمة، لقد أحصينا فى خزائن ذى اليمَينيْن بعد موته، ألفين وثَلثُمائة سراويل من صنوف الثّياب، ما أُصلِحَ فى أحدها تكّة، سوى ما استُعمل فى اللبّس، على أنّ النّاس يقلّون اتخاذ السراويلات فى كُسَاهم.

فاعتذرتُ إليه بما حضرنى من القول فى هذا، وفى جميع ما تضمنّته القصيدة، فقَبِل القول، وبَسَطَ العُذر، وأظهرَ الصفح.

وقال: قد دللتنا على ما احتجنا إليه، من معرفة أمر نَصْر بن شَبَث، أفتستحسنُ القعودَ عنّا في حربه. ولا يكون لك فى الظَّفَر به أثرٌ يشاكل إرشادك لوجوه مطالبه؟ فاعتذرتُ إليه بلزوم ضيعتى ومنزلى، وعجزى عن السّفر للقصور عن آلته.

فقال: نكفيكَ ذلك، وتقبَلُه منّا، ودعا بصاحب دوابّه، فأمره بإحضار خمسة مراكب من الخيل الهَمَاليج بسروجها ولجُمها المُحَلاّة، وبثلاث دوابّ من دوابّ الشّاكريّة، وخمسة أبغل من بغال الثقل، وأمر صاحب كُسوته بإحضار خمسة

تُخُوت من أصناف الثياب الفاخرة، وأمر خازنَه بإحضار خمس بدر دراهم، فأحضرَ جميعُ ذلك، ووُضعَ على الدكّان الذى كان عليه جالسًا بباب الحِصن.

ثم قال لى: كم مدَّة تأخرّك عنّا إلى أن تلحق بنا؟ فقرَّبتُ الموعد، فقام ليركب، فابتدرتُ إلى يده لأقبلَّها، فمنعنى، وركب، وسار الجيش معه، وما ترك أحدًا ينزل، وكفى الله مؤونتهم، وخرجَت السوداء، فنقلت الثيابَ والبِدَر، وأخذ الغِلمان الكُراع، وما لَقِيتُ عبدَ الله بعدها.

●●●

عَرَبٌ وأتْرَاك

كان الإفشين[1] نَقَمَ على أبى دُلَف العِجْلىّ[2]، وهو مضموم إليه فى حرب بَابِك[3]، أشياء، فلمّا ظَفِر بِبَابِك، وقَدِم «سُرَّ مَنْ رَأى»، شكاه إلى المُعتصم، وسأله ليأمَره به، ففعل، ثم سأله أن يُطلق يده عليه، فلم يفعل، وكان أحمدُ ابنُ أبى دُؤَاد متعصباً لأبى دُلَف، يقول للمعتصم: إنّ الإفشينَ ظالمٌ له، وإنّما نَقَمَ عليه نصيحتَه فى مُحاربة بَابِك، وجِدّه فيها، ودَفْعَهُ ما كان الإفشين يذهب إليه من مُطاولة الأيّام، وإنفاقِ الأموال، وانبساطِ اليد فى الأعمال، وتركَهُ متابعته على ذلك.

فألحَّ الإفشين على المعتصم بالله فى إطلاق يده عليه، وكان للإفشينِ قَدْرٌ جليل عند المعتصم، يدخل عليه بغير إذْن.

«قال ابن أبى دُؤاد»: دَخَلْتُ على المعتصم يومًا، فقال: يا أبا عبد الله، لم يدعُنى اليومَ أبو الحسن الإفشين حتى أطلقتُ يدَه على القاسم بن عيسى (يعنى أبا دُلَف).

فقمتُ من بين يديه، وما أبصرُ شيئًا خوفًا على أبى دُلف، ودخلَنى أمرٌ عظيم، وخرجتُ فركبتُ دابتى، وسرتُ أشدَّ سيرٍ من الجَوْسَق إلى دار الإفشين بقرب المطِيرة، أؤمّل أن أدرك أبا دُلَف قبل أن يُحْدِثَ الإفشينُ عليه حادثة.

فلّما وقفتُ ببابه، كَرِهتُ أن أستأذنَ فيعلمَ أنّى قد حضرتُ بسبب أبى دُلَف، فيُعَجّل عليه، فدخلتُ على دابتى إلى الموضع الذى كنت أنزل فيه، وأوهمتُ حاجبه أنّى قد جئتُ برسالة المعتصم، ثمّ نزلتُ، فرُفِعَ السِّتر، فدخلتُ، فوجدتُ

---

(١) الإفشين قائد من الترك، صارت إليه قيادة الجيوش فى عصر المعتصم الذى استكثر من جنود الترك، خروجًا عن صراعات العرب والفُرس، فتحول الدواء إلى داء جديد، وهذه القصة تجسّد جانبًا من الصراع العربى التركى.

(٢) من أبطال العرب وقادتهم، واسمه القاسم بن عيسى.

(٣) بابك الخُرمىّ ثائر فارسى على الخلافة العباسية، هزمه الإفشين وقتله.

الإفشينَ فى موضعه، وأبو دُلَف مقيَّد بالحديد بين يديه فى نِطْعٍ، وهو يُقرِّعُهُ، ويخاطِبُه بأشدِّ غضبٍ وأعظمِ مُخاطبة.

فحين قربْتُ منه أمسكَ، فسلَّمْتُ، وأخذتُ مجلسى، ثمّ قلت للإفشين: قد عرفتَ حُرمتى بأمير المؤمنين، وخدمتى إيّاه، وموضعى عنده، وموقعى من رأيه، وتفرّدَه بالصنيعة عندى والإحسان، وعلمتَ مع ذلك ميلى إليك، ومحبّتى لك، وقد رَغبْتُ إليك فيما يَرْغَبُ فيه مثلى إلى مِثلك، ممن رفع الله قدرَه، وأجلَّ خطره، وأعلى همتّه.

فقال: كلُّ ما قلتَ كما قلتَ، وكلّ ما أردتَ فهو مبذول لك، خلا هذا الجالس، فإنّى لا أشفّعُكَ فيه.

فقلت: ما جِئتُك إلا فى أمره، ولا ألتمس منك غيرَه، ولولا شدّة غضبك، وما تتوعّده به من القتل، لكان فى جميل عفوكَ ما يُغنى عن كلامك، ولكنّى لما عرفتُ غيظَك، وما تَنْقمه عليه، احتجتُ - مع موقعه منّى - إلى كلمة فى أمره، واستيهاب عظيم جُرْمه، إذ كان مثلُك فى جلالتك إنّما يُسأل جلائلَ الأمور.

فقال: يا أبا عبد الله، هذا رجل طَلَبَ دمى، ولم تُقنعه إزالةُ نعمتى، ولا سبيلَ إلى تشفيعكَ فيه، ولكنْ هذا بيتُ مالى، وهذه ضياعى، وكلُّ ما أملك بين يديك، فخذ من ذلك كلّه ما أردتَ.

فقلتُ: بارك الله لك فى أموالك وثَمَّرهَا، لم آتِكَ في هذا، وإنّما أتيتُكَ فى مكْرُمَةٍ يبقى لك فضلُها، وحسنُ أحدوثتِها، وتعتقد بها مِنّةٌ فى عنقى، ولا أزال مرتَهنًا فى شكرها.

فقال: ما عندى في هذا شىءٌ البتّةَ.

فقلتُ له: القاسمُ بن عيسى فارسُ العرب وشريفُها، فاستَبْقِه، وأنعِمْ عليه، فإن لم تره لهذا أهلاً، فهَبْه للعرب كلَّها، وأنت تعلم أنّ ملوكَ العجم لم تزل تَفْضُلُ

على ملوك العرب، ومن ذلك ما كان كسرى إلى النّعمان حتى ملّكه، وأنتَ الآن بقيّةُ العَجَم وشريفُها[1]، والقاسمُ شريفُ العرب، فكن اليوم شريفًا من العَجَمِ أنعم على شريفٍ من العرب، وعفا عنه.

فقال: ما عندى فى هذا جوابٌ إلا ما سمِعْتَ، وتنكّر، وتبيّنْتُ الشرَّ فى وجهه.

فقلتُ فى نفسى: أنصرفُ، وأدَعُ هذا يقتل أبا دُلَف؟ لا والله، ولكن أمْثُلُ بين يديه قائمًا، وأكلّمه، فلعله أن يستحِيَ، فقُمتُ، وتوهّمنى أريد الانصرافَ، فتحفّزَ لى.

فقلت: لستُ أريد الانصراف، وإنّما مَثُلْتُ بين يديك قائمًا، صابرًا، راغبًا، ضارعًا، سائلاً، مُستَوْهِبًا هذا الرّجلَ منك.

فكان جوابه أغْلظ.

فتحيّرتُ، وقلتُ فى نفسى: أنكبُّ على رأسه، فأقبّله، فدَخَلَنى من ذلك أنَفٌ شديدٌ[2]، وقلتُ فى نفسى: أقبّلُ رأسَ هذا الأقلف؟[3] لا يكون هذا أبدًا.

ثمّ راجعتنى الشّفقةُ على أبى دُلَف، فقبّلتُ رأسَه، وضَرَعتُ إليه، فلم يجبنى، فأخذنى ما قَدُم ومَا حَدَثَ.

فجلست، وقلت له: يا أبا الحسن، قد طلبتُ منك، وضَرَعْتُ إليك، ووضعتُ خدّى لك، ومثُلْتُ بين يديك، وقبّلتُ رأسَكَ، فشفِّعْنى، واصرِفْنى شاكرًا، فهو أجملُ بك.

فقال: لا والله، ما عندى غير الذى قلتهُ لكَ.

فقلت له: أنا رسولُ أمير المؤمنين إليك، وهو يقول لك: لا تُحْدِثْ فى القاسم ابن عيسى حَدَثًا، فإنّك إن قتلته قُتِلتَ به.

---

(١) اعتبر ابن أبى دُوَاد «العجم» جنسًا جامعًا لكل مَن ليسوا عربًا، وهذا صحيح وإن يكن ضَرَبَ المثل للقائد التركى بكسرى فارس.

(٢) الأنف والأنفة: الكبرياء والترفع.

(٣) الأقلف: الذى لم يُختن.

قال: أمير المؤمنين يقول هذا بعد أن أطلق يدى عليه؟

قلت: نعم، أنا رسوله إليك بما قلتُه لك، فإن كنتَ فى الطَاعة فاسمعْ وأطِعْ، وإن كنتَ قد خَلَعْتَ، فقل: لا طاعة! ونفضتُ فى وجهه يدى، ونهضتُ.

فاضطرب حتّى لم يقدْر أن يدعوَ لى بدابّتى.

وركبتُ، فأغذَذْتُ السير إلى المُعتصِم، لأخبرَه الخبر، وبما اضطُررْتُ إليه من تأدية رسالته، لأنّى علمتُ أنّه لم يقلْ لى ما قاله، إلا وهو يحبُّ استبقاء أبى دُلَف.

فانتهيتُ إلى الجَوْسَق فى وقت حار، والحُجَّابُ جميعًا نيام، والدَّارُ خالية، فدخلتُ حتّى انتهيتُ إلى ستر الدَّار التى فيها المعتصِم، فجلست، وقلت: إن جاء الإفشين دخلتُ معه وتكلّمْتُ، وإن سألَ الوصول، أخبرتُ أميرَ المؤمنين الخبر كلّه[1].

فبيَّنا أنا كذلك، إذ خرج خادمٌ من وراء السِتر، فعرّفته، ثمّ دخل وخرج فقال: ادخل.

فدخلت، وقلت: يا أميرَ المؤمنين، أمَا لى حُرمة؟ أما لى ذِمام؟ أما لى حقّ؟ أما فى فَضل أمير المؤمنين علىّ، ونِعمته عندى، ما تجب رعايته؟

فقال: مالكَ يا أبا عبد الله؟ ما قصّتك؟ اجلس، فجلست.

ثمّ قلت: يا أميرَ المؤمنين، قلتَ لى اليوم فى القاسم بن عيسى قولاً علمتُ معه أنّك أردتَ استبقاءه وحَقْنَ دمه، فمضيتُ من فورى إلى أبى الحسن الإفشين، ثمّ قصصتُ عليه القصّة إلى موضع الرّسالة التّى أدّيتُها عنه إليه، وهو فى كلّ ذلك يتغيّظ، ويفتل سِبَاله[2]، حتّى إذا أردتُ أن أعرّفه الرّسالةَ التى أدّيتُها عنه، قطع، وقال: يمضى قاضىَّ، وصنيعتى أحمدُ بنُ أبى دُؤَاد إلى خَيْذَر[3]، فيخضعُ له، ويقفُ بين يديه، ويُقبّلُ رأسه، فلا يشفّعه؟ قتلنى الله إن لم أقتلْه، يكرّرها.

---

(١) إشارة إلى ما ادّعاه ابن أبى دُؤَاد من أنه يحمل رسالة صريحة من المعتصم بعدم قتل أبى دُلف.

(٢) السبال: الشارب. (٣) خيذر بن كاوس هو الإفشين.

فما استوفى كلامه، حتّى رُفع السِّتر ودخل الإفشين، فلقَيه بأكبرِ البّر والإكرام، وأجلسه بقُربه، وقال: فى هذا الوقت الحارّ يا أبا الحسن؟

فقال: يا أمير المؤمنين، رجلٌ قد عرفتَ ما نالنى منه، وأنّه طلب دمى، وقد أطلقت يدى عليه، يجيئُنى هذا، ويقول لى إنّك بعثتَ إلىّ تأمرنى أن لا أحْدِث فيه حَدَثًا، وأنّى إن قتلتهُ قُتِلْتُ به؟

قال: فغضب، وقال: أنا أرسلتُه إليك، فلا تُحدِثْ على القاسم بن عيسى حَدَثًا.

فنهض الإفشين مغضبًا يُدَمْدِمُ، واتّبعته لأتلافاه، فصاح بى المعتصم: ارجع يا أبا عبد الله، فرجعتُ، وقلت: يا أميرَ المؤمنين، إنّه كان بقى شىء مما جرى منّى قطعتنى بكلامك عن ذكره لك.

قال: تعنى الرّسالة؟

قلت: نعم.

قال: قد فهمتها، والقاسم (أبو دُلَف) يوافيك العشيَّة، فاحذر أن تفوه بشىء مما جرى.

ومضى الإفشين، فأطلق القاسمَ، وخلَع عليه، وحملَه، فجاءنى القاسم من العشيّة.

وما أخبرتُ بالحديث حتّى قُتِل الإفشينُ، ومات المُعتصِم.

●●●

١٦- الكُلُّ في واحد!!

حدّثني أبو الحسن أحمد بن يوسف الأزرق التَّنُوخيُّ، قال:

كان إسماعيلُ الصفَّار البصريُّ، أحدَ شيوخ المعتزلة الأجلاد، وكان النّاس - إذ ذاك - يتشدّدون على المعتزلة، وينالونهم بالمكاره.

فتقلّد البصرة نِزارُ بنُ محمّد الضبّي، فرُفع إليه عن رجل أنّه مُعتَزِلي، فحبسه[1]، فاستغاث الرّجل بإسماعيل، فكلّم غيرَ واحد من رؤساء البلد، أن يكلّم نِزارًا فيه، فتجنّبوا ذلك بسبب المَذْهب، فبات إسماعيل قَلِقًا.

ثمّ بَكَرَ من غد، فطاف على كل معتزليّ بالبصرة، وقال لهم: إن تمَّ هذا عليكم هلكتم متفرّقين، وحُبِسْتُمْ، وأتيَ على أموالكم ونفوسكم، فاقبلوا منّي، واجتمعوا، وتدبّروا برأيي، فإنّ الرّجل يتخلّص وتَعِزُّون.

فقالوا: لا نُخالِف عليك.

فوعدهم ليوم بعينه، ووعد معهم كلَّ مَن يعرفه من العوام، وأصحاب المذاهب ممّن يتّبع قُصّاص المعتزلة، ومَن يميل إليهم.

فلمّا كان ذلك اليوم، اجتمع له منهم أكثر من ألفِ رجل، فصار بهم إلى نِزار، واستأذن عليه، فأذِن له ولهم.

فقال: أعزّ الله الأمير، بلغَنا أنّك حَبَسْتَ فلانًا، لأنّه قال: إنّ القرآن مخلوق، وقد جئناك، وكلّنا نقول: إنّ القرآن مخلوق، وخلفنا ألوف يقولون كما نقول، فإمّا حبستَنا جميعًا، وإمّا أطلقت صاحبَنا، وإذا كان السُّلطان - أطال الله بقاءه - قد ترك المِحْنة، وقد أقرّ النّاسَ على مذاهبهم، فلِمَ نؤاخَذُ نحن بمذهبنا، من بين سائر المقالات؟

فنظر نِزار فإذا فتنة تثور، لم يُؤذنَ له فيها، ولم يَدْرِ ما تجرّ، فأطلق الرّجل، وسلّمه إليهم.

فشكره إسماعيل، وانصرف والجماعة.

---

(١) لا يزال الدساسون ضيقوا الفكر يفعلون الشيء نفسه تحت شعار العقيدة، أو الأخلاق... وقد رسمت القصة (الخبر) طريقة الردّ على من يحارب الفكر بالعنف.

١٧- الشاعرُ والمُنجِّم!!

حدّثنى علىُّ بنُ هشام بن عبد الله الكاتب، قال: حدّثنى أبو القاسم سليمان ابن الحسن بن مَخْلَد، قال:

لما أنفذَ أبى إلى مصر، واجتذبْتُ أبا عُبادة البُحْتُرىَّ، وأبا مَعْشَرٍ المنجِّم، وكنتُ آنس بهما فى وَحدتى، وملازمتى البيت، فكانا أكثرَ الأوقات عندى، يحادثانى ويعاشرانى.

فحدّثانى يومًا: إنّهما أضاقا إضاقةً شديدة، وكانا مصطحبين، فعنَّ لهما أن يَلْقَيا المعتزّ بالله، وهو محبوس، فيتودّدان إليه ويؤصِّلان عنده أصلاً[1]، فتوصّلا إليه، حتّى لقياه فى حبسه.

قال البحترىّ: فأنشدتُه أبياتى التى كنت قلتُها في محمّد بن يوسف الثَّغْرى، لما حُبِس، وخاطبتُ بها المعتزّ، كأنّى عملتُها له فى الحال، وهى:

جُعلتُ فداك الدّهرُ ليس بمنفكّ ... من الحادث المشكّو والنّازل المَشْكى
وما هذه الأيّامُ إلاّ منازلٌ ... فمن منزل رَحْبٍ ومن منزلٍ ضنْك
وقد هذَّبتْك الحادثاتُ وإنّما ... صفا الذّهبُ الإبريزُ قبلَك بالسّبْك
أما فى رسول الله يوسفَ أسوةٌ ... لمثلك محبوسًا على الظُّلم والإفْك
أقام جميلَ الصبر فى السّجن برهةً ... فآل به الصّبر الجميل إلى المُلْك
على أنّه قد ضِيم فى حبسك العُلاَ ... وأصبح عزُّ الدِّين فى قبضة الشِّرْك

قال: فأخذ الرُّقعة التى فيها الأبيات، فدفعها إلى خادمٍ كان واقفًا على رأسه، وقال له: احتفظ بهذه الرُّقعة، فإن فرَّج الله عنّى، فأذْكِرنى بها، لأقضىَ حقّ هذا الرّجل الحرّ.

---

(١) أى يقدمان له خدمة فى مرحلة اضطهاده، يقدِّرها لهما حين يئول الأمر إليه.

وقال لى أبو معشر: وقد كنتُ أنا أخذت مولده، ووقتَ عُقِدَ له العهد، ووقتَ عُقدت البيعةُ للمستعين بالخلافة، فنظرتُ فى ذلك، وصحّحتُ الحُكم للمعتزّ بالخلافة بعد فتنة تجرى وحروب، وحكَمْتُ على المستعين بالقتل، فسلّمتُ ذلك إلى المعتزل، وانصرفنا[1].

وضرب الزّمانُ ضربه، وصحّ الحكم بأسره.

قال أبو معشر: فدخلتُ أنا والبُحترى جميعًا إلى المعتزّ، وهو خليفة، بعد خلع المُستعين وتغريقه، فقال لى: لم أنْسَكَ، وقد صحّ حُكْمُك، وقد أجريْتُ لك فى كلّ شهر مائةَ دينار، وثلاثين ديناراً نُزُلاً، وجعلتُك رئيسَ المنجمين فى دار الخلافة، وأمرتُ لك عاجلاً بإطلاقِ ألفِ دينارٍ صِلَةً، فقبضتُ ذلك كلّه فى يومى.

●●●

(١) وهكذا خدع ولى العهد (المعتز) المتعلق بالخلافة بأبيات تناسب حاله لكنها ليست فيه، وتلفيقات منجم كاذب، وتفاءل بهذا وصدّقه، وأثاب عليه فيما بعد.

١٨- جَهَالَة أهلِ الثِّقَة

حدّثنى محمّد بن مَخْلد، وكان يلقّب لُبَد، لطول عمره، وروى عنه المدائنىّ الكاتب، عن أبيه مخلد بن يزيد:

أنّ المأمونَ، أوّلَ ما قدم العراق، خطر له أن يقلّد الأعمال، الشيعةَ [١] الذين قدموا معه من خُراسان، فطالت عُطلة كتّاب السواد وعمّالِه، وكانوا يحضُرون دارَه فى كلّ يوم، حتّى ساءت أحوالهم.

فخرج يومًا بعضُ مشايخ الشيعة، وكان مغفلاً، فتأمّل وجوههم، فلم يَرَ فيهم أسنَّ من مَخْلَد بن يزيد، فجلس إليه، وقال له: إنّ أمير المؤمنين أمرنى أن أتخيّر ناحية من نواحى الخَراج، صالحةَ المِرْفق، ليوقّع بتقليدى إيّاها، فاخترْ لى ناحية.

فقال: لا أعرف لك عملاً أولى بك من بَزْبَنْدَات[٢] البحر، وصدقات الوحْش.

فقال له: اكتبه لى. فكتبه له مَخْلَد، فعرض الشيعىّ الرُّقعةَ على المأمون، وسأل تقليدَه ذلك العمل.

فقال له: مَنْ كتب لك هذه الرُّقعة؟

فقال: شيخٌ من الكتّاب، يحضُر الدارَ فى كلّ يوم.

فقال: هلمَّه.

فلمّا دخل، قال له المأمون، ما هذا يا جاهل؟ تفرّغتَ لأصحابى؟

فقال له: يا أمير المؤمنين، أصحابُنا هؤلاء ثقاتٌ يصلحون لحفظ ما يصل إلى أيديهم من الخزائن والأموال، وأما شروط الخراج، وحكمه، وما يجب تعجيلُ استخراجه، وما يجب تأخيره، وما يجب إطلاقه، وما يجب منعه، وما يجب

---

(١) الشيعة بمعنى الأنصار الذين قاتلوا معه ضد أخيه الأمين.

(٢) بزبندات البحر: أى السدود التى تقام على شاطئه. وهنا كان أهل «الخبرة» الذين لحقهم التعطل يتهكمون من أهل «الثقة» الجهلاء، فليست هناك وظائف بهذا المعنى!!

إنفاقه، وما يجب الاحـتسابُ به، فلا يعرفونه، وتقليـدهم يعود بذَهاب الارتفاع، فإن كنتَ يا أمـير المؤمنين لا تَثِقُ بنا، فضمّ إلى كلّ واحد منهم رجـلاً منّا، فيكون الشيعيُّ يحفظ المال، ونحن نجمعه.

فاستطاب المأمون رأيه وكلامه، وأمر بتقليد عمّال السَّواد وكتّابه، وأن يَضُمَّ إلى كلَّ واحد منهم، واحدًا من الشـيعة، وضمّ مَخْلَدَ إلى ذلك الشـيخ، وقلّده ناحية جليلة.

●●●

١٩- مصادَفةٌ.. صَدَقَتْ

حدّثنى عبيدُ الله بن محمّد العَبْقَسى، عن بعض تجّار الكَرْخ ببغداد قال:

كنتُ أعاملُ رجلاً من الخُراسانية، أبيعُ له فى كل مَوْسِم متاعًا، فأنتفعُ من سمسرته بألوف دَراهِم.

فلما كان سنةٌ من السنين تأخّر عنّى، فأثّر ذلك فى حالى، وتواترت علىّ مِحنٌ، فأغلقتُ دكّانى وجلستُ فى بيتى، مستترًا من دَيْنٍ لحقنى، أربع سنين.

فلمّا كان فى وقت الحاجّ، تتبّعَتْ نفسى خبرَ الخُراسانى، طمعًا فى إصلاح أمرى به، فمضيْتُ إلى سوق يَحيى، فلم أعْط له خبرًا، فرجعتُ، فنزلتُ الجزيرة وأنا تعب مغموم.

وكان يومًا حارًا، فنزلتُ إلى دِجلة، فتغسّلت، وصَعدتُ، فابتلّ موضعُ قدمى، فقلعتْ رجلى قطعةً من الرمل، انكشفت عن سَيْرٍ.

فلبستُ ثيابى، وجلستُ مفكرًا أولَعُ بالسير، فلم أزل أجرّه حتّى ظهر لى هِمْيَان[1] موصولٌ به، فأخذتُه، فإذا هو ملوءٌ دنانيرَ، فأخفيته تحت ثيابى، ووافيتُ منزلى، فإذا فيه ألفُ دينار.

فَقوِيَتْ نفسى قوّةً شديدة، وعاهدتُ الله عَزَّ وجَلَّ، أنّه متى صَلُحَت حالى، وعادت، أن أعرِّف الهميانَ، فمَن أعطانى صِفَتَه، رددتُه عليه.

واحتفظت بالهميان، وأصلحتُ أمرى مع غُرَمائى، وفتحت دكّانى، وعدتُ إلى رَسْمى من التجارة والسَّمْسَرة، فما مضت إلا ثلاث سنين حتّى حَصَل فى ملكى ألوفُ دنانير.

وجاء الحُجّ، فتتبّعْتُهم لأعرِّف الهِميان، فلم أجد مَن يعطينى صفتَه، فعدتُ إلى دكّانى.

---

(١) الهميان: الحزام وقد ربط إليه كيس لحفظ النقود.

فبينما أنا جالس، إذا رجلٌ قائم حِيال دكّانى، أشعثَ، أغبرَ، وافى السّبال[1]، وفى خِلْقَة سُؤَّال[2] الخراسانيّة، وزيِّهم، فظننته سائلاً، فأومأت إلى دُرَيْهات لأعطيَه، فأسرع الانصراف، فارتبْتُ به، فقمتُ، ولحِقْتُه، وتأمّلته، فإذا هو صاحبى الّذى كنت أنتفع بسمسرته فى السنة بألوفِ دراهم.

فقلت له: يا هذا، ما الذى أصابك؟ وبكيْتُ رحمةً له.

فبكى، وقال: حديثى طويل.

فقلت: البيت، وحملْتُه إلى منزلى، فأدخلته الحَمَّام، وألبستُه ثيابًا نظافًا، وأطعمته، وسألته عن خبره.

فقال: أنت تعرف حالى ونعمتى، وإنّى أردتُ الخروج إلى الحَجِّ فى آخر سنة جئتُ إلى بغداد، فقالى لى أمير البلد: عندى قطعةُ ياقوتٍ أحمرَ كالكفّ، لا قيمة لها عِظمًا وجلالةً، ولا تصلح إلاّ للخليفة، فخذها معك، فبعْها لى ببغداد، واشتر لى من ثمنها متاعًا طَلَبَه، من عِطْر، وطُرَف، بكذا وكذا، واحمِل الباقى مالاً.

فأخذتُ القطعةَ الياقوت، وهى كمال قال، فجعلتُها فى هميان جِلْد، من صفته كيْتَ وكيْتَ، وصف الهميان الّذى وَجَدْتُهُ، وجعلتُ فى الهميانِ ألفَ دينار عَيْنًا من مالى، وحملتُه فى وَسَطى.

فلمّا جئتُ إلى بغداد، نزلتُ أسبح عشيًا فى الجزيرة الّتى بِسُوقِ يَحيى، وتركتُ الهميان وثيابى بحيث ألاحظُها.

فلمّا صعدت من دِجلة، لبستُ ثيابى عند غروب الشمس، وأنْسيتُ الهميان، فلم أذكرْه إلى أن أصبحتُ، قعدتُ أطلبه، فكأنَّ الأرضَ ابتلعته.

فهوّنْتُ على نفسى المصيبة، وقلت: لعلّ قيمةَ الحَجَرِ ثلاثةُ آلاف دينار، أغرمها له.

---

(١) السبال: الشارب، فالرجل أشعث مهمل الشعر لبؤسه.

(٢) السؤال (بتشديد الهمزة): جمع سائل، وهو الشحاذ.

فخرجتُ إلى الحجّ، فلما رجعتُ، حاسبْتُك على ثمن متاعى، واشتريتُ للأمير ما أراده، ورجعتُ إلى بلدى، فأنفذتُ إلى الأمير ما اشتريتُه، وأتيتُه، فأخبرتُه بخبرى.

وقلت له: خذ منّى ثلاثة آلاف دينار، عِوَضًا عن الحَجر.

فطمِع فىّ، وقال: قيمته خمسون ألف دينار، وقبض علىّ، وعلى جميع ما أملكه من مال ومتاع، وأنزل بى صنوف المكاره، حتّى أشهَدَ علىَّ فى جميع أملاكى[1]، وحبسنى سبع سنين، كنتُ يُرَدَّدُ علىَّ فيها العذاب.

فلمّا كان فى هذه السنة، سأله النَّاس فى أمرى، فأطلقنى.

فلم يمكننى المُقام ببلدى، وتحمّلُ شماتة الأعداء، فخرجتُ على وجهى، أعالجُ الفقرَ، بحيث لا أُعْرَف، وجئتُ مع الحَجّ الخُراسانى، أمشى أكثرَ الطريق، ولا أدرى ما أعمل، فجئتُ إليك لأشاورَك فى معاشٍ أتعلّق به.

فقلت: قد ردَّ الله عليك بعضَ ضالتك، هذا الهِميان الّذى وصفْتَه، عندى، وكان فيه ألفُ دينار أخذتُها، وعاهدت الله تعالى، أنّنى ضامنها لمن يعطينى صفةَ الهِميان، وقد أعطيتنى أنت صِفتَه، وعلمتُ أنّه لك، وقمتُ، فجئته بكيسٍ فيه ألفُ دينار.

وقلتُ له: تعيّشْ بهذا فى بغداد، لأنّك لا تَعْدَمُ خيرًا إن شاء الله.

فقال لى: يا سيّدى الهميان بعينه عندك، لم يخرج عن يدك؟

قلت: نعم.

فشَهِقَ شهقة، ظننتُ أنّه قد مات معها، وغُشِىَ عليه، فلمّا أفاق بعد ساعة، قال لى: أين الهميان؟

فجئتُه به، فطلب سكينًا، فأتيتُه بها، فخرق أسفل الهِميان، وأخرج منه حَجَرَ

---

(١) أى ان أمير البلد استولى على جميع ما يملك فى مقابل الياقوتة المفقودة، وأشهد عليه أنه باع له هذه الممتلكات!!

ياقوتٍ أحمر، أشرق منه البيت، وكاد يأخذ بَصَرى شعاعُهُ، وأقبل يشكرنى، ويدعو لى.

فقلتُ له: خذ دنانيرك.

فحلف بكلِّ يمين، لا يأخذ منها إلاّ ثمنَ ناقة، ومحمل، ونفقة تُبْلِغُه، فبعد كلّ جهد أخذ ثلثمائة دينار، وأحلَّنى من الباقى، وأقام عندى، إلى أن عاد الحاجّ، فخرج معهم.

فلمّا كان العام المقبل، جاءنى بقريب ممَّا كان يجيئنى به سابقًا من المتاع.

فقلت له: أخبِرنى خبرك.

فقال: مضيتُ، فشرحتُ لأهل البلد خَبَرى، وأريتُهم الحجَر، فجاء معى وجوهُهم إلى الأمير، وأعلموه القصّة، وخاطبوه فى إنصافى.

فأخذ الحجَر، وردّ علىَّ جميع ما كان أخذه منّى، من متاع، وعَقار، وغير ذلك، ووهبَ لى من عنده مالاً.

وقال: اجعلنى فى حِلّ ممّا عذّبتُك وآذيتُك فأحللتُه.

وعادت نعمتى إلى ما كانت عليه، وعدتُ إلى تجارتى ومعاشى، وكلّ هذا بفضل الله تعالى وبركتك، ودعا لى.

وكان يجيئنى بعد ذلك، حتّى مات.

●●●

٢٠- المأمون يعود إلى السماع

حدّثنى أبو الفرج الأصبهانى، قال:

أقام المأمونُ بعد دخوله بغداد عشرين شهرًا، ولم يسمع حرفًا من الأغانى، ثم كان أوّلَ مَن تغنّى بحضرته أبو عيسى بن الرّشيد أوّل مرّة، ثمّ واظب على السماع متسترًا، متشبّهًا بالرّشيد فى أوّل أمره، فأقام المأمون كذلك أربع سنين، ثم ظهر للندماء والمغنّين.

قال إسحاقُ بنُ إبراهيمَ المَوْصِلى: وكان حين أحبّ السّماع، سأل عنّى، فجُرِّحْتُ بحضرته، وقال الطاعن علىّ: ما يقول أمير المؤمنين فى رجل يَتِيهُ على الخلفاء، ما بَقَّى هذا من التيه شيئًا إلاّ استعمله.

فأمسك عن ذكْرِى، وجفانى مَن كان يصلنى لسوء رأيه فىّ، فأضرَّ ذلك بى، حتّى جاءنى عَلُّوَيَهَ يومًا، فقال لى: أتأذن لى فى ذِكْرِكَ بحضرة المأمون، فإنّا قد دُعِينا اليوم.

فقلت: لا، ولكن غنِّهِ بهذا الشِعر، فإنّه يبعثه على أن يسألك لمن هو؟

فإذا سألك انفتح لك ما تريده، وكان الجوابُ أسهلَ عليك من الابتداء.

قال: هات، فألقيتُ عليه لحنى فى شِعرى:

يا سَرْحَةَ الماء قد سُدَّت مواردُهُ ... أما إليك طريقٌ غيرُ مسدودِ

لحائم حامَ حتّى لا حُيامَ به ... مشرّدٍ عن طريق الماء مطرودِ

قال أبو الفرج الأصبهانى: والغناء فيه لإسحاق الموصلى، رَمَلٌ بالوسطى، عنه، وعن عمرو بن بانة.

رجع الحديث، قال: فمضى عَلُّوَيَه، فلمّا استقرّ به المجلس، غنّاه بالشِعر، الّذى أمره به إسحاق.

فقال المأمون، ويلُك يا عَلُّويَه، لمن هذا الشِعر:

فقال: يا سيّدى لعبدٍ من عبيدك، جفوتَه، واطّرحتَه، من غير ذنب.

فقال: إسحاقَ تَعْنِى؟

قال: نعم.

فقال: يحضر الساعة.

قال إسحاق: فجاءنى رسول المأمون، فصرتُ إليه، فلمّا دخلتُ إليه استدنانى، فدنوتُ منه، فرفع يديه إلىّ مادّهما، فانكببتُ عليه، فاحتضننى بيديه، وأظهر من بِرّى وإكرامى، ما لو أظهره صديقٌ مؤانس لصديق، لسُرَّ به.

●●●